
الكتاب الذهبي
نادي القصة
المعذبون
في الأرض
طه حسين



الهدف الكبير

تأليف أمينة السعيد

سألت زوجي حين رأيتها في الأسبوع الماضي تجالس شخصا لعوبا سيء السمعة لاكت الشائعات اسمها به في العهد الأخير، ماذا دعاها، هذه المرأة، وأي متعة تجدها في هذا الرجل؟

أجابني بهدوئه المعهود - لقد تاهت وراء هدفها الكبير!

سلسلة شهرية تصدر



عن نادي القصة



١٠ قروش



سلسلة شهرية تصدر عن نادي القصة

في الخامس من كل شهر

رئيس التحرير : يوسف السباعي

العدد ٩

ابريل ١٩٥٨ — رمضان ١٣٧٧ — نيسان ١٩٥٨

التحرير والادارة : ٥٣ شارع الجمهورية — القاهرة

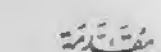
ص . ب ٣٢٥ — القاهرة ت ٤٨٦٦٩

الكتاب الفضي



سلسلة شهرية تصدر عن نادي القصة

الناشر : الشركة العربية للطباعة والنشر



إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العمل ،
وإلى الذين يؤرقهم الخوف من العمل ،
إلى أولئك وهؤلاء جميعا ،
أسوق هذا الحديث

* * *

إلى الذين يجدون ما لا ينفقون ،
وإلى الذين لا يجدون ما ينفقون ،
يساق هذا الحديث

لا أجد لتصوير الحياة في مصر أثناء الأعوام الأخيرة من العهد الماضي أدق من هذين الاحساسين اللذين يتقاسمان كل من تناول هذا الكتاب ، فقد كان المصريون في تلك الأعوام الغريبة العجيبة فريقين . أحدهما يصور الكثرة الكثيرة البائسة التي تتحرق شوقا إلى العمل صبيحة ومسية وفيما بين ذلك من آناء الليل وأطراف النهار ، والآخر يصور القلة القليلة التي تشفق من العمل حين تستقبل ضوء النهار ، وتفزع من العمل حين تجنها ظلمة الليل . وكان فريق الكثرة ذاك لا يجد ما يحقق له رزق نفسه ولا رزق من يعول ، فيشقى بما يجد من الحرمان ، ويشقى أشد الشقاء وأقساه أكثر مما يجد عياله من الحرمان ، كانت عينه بصيرة إلى أبعد ما يبلغ البصر ، وكانت يده قصيرة إلى أدنى ما يكون القصر ، كان يرى الطيبات بين يديه فتتوق إليها نفسه ، وتتوق إليها نفوس بنيه وبناته ،

فاذا اراد أن يمد اليها يده ثبت ان تمتد كأنما اصابها شلل ، أو كأنها شدت الى سائر جسمه بأثقل الأغلال ، فكان يكظم غيظه ويصبر نفسه على مكروهها ، ويصبر اهله على البأساء والضراء ، وينتظر العدل الذي يبطىء عليه فيغلو في الابطاء .

وكان يرى الآفات المختلفة تسلط على جسمه ونفسه ، وعلى أجسام عياله ونفوسهم ، ويهم أن يصلح مما تفسده تلك الآفات ، فيقصر به همه ، ويقعد به عزمه ، ويضطر الى أن يسلم نفسه وأهله لهذه الآفات تعبث بهم كما تريد ، قد وطن نفسه على الجهل لأن اباه لم يستطع تعليمه ، وهم أن يخرج عياله من الجهل الذي اعطي هو مثله ، فلم يجد الى ذلك سبيلا ، فرضي الجهل لبنيه كما رضيه لنفسه ، وانتظر العدل الذي يتيح لبنيه من المعرفة ما لم يتح له في صباه ، ولكن العدل يشرد عليه وعلى بنيه فيغلو في الإبطاء .

وكان يرى البؤس له خليطا بغيضا ، يصحبه اذا سعى في الأرض ، ويصحبه اذا راح الى داره ، ويسكن معه ومع اسرته في تلك الدار لن يبحث له ولأسرته دارا يأوون اليها ، فيصبر نفسه على هذا الخليط البغيض ، ويصبر اهله عليه ، واثقا بانه لن يستطيع منه فرارا ، لأنه لن يستطيع أن يتخذ نفقا في الارض او سلما في السماء ، فينتظر العدل الذي سيخلصه ويخلص اهله من خليطه ذلك البغيض ، ولكن العدل يبطىء عليه فيغلو في الابطاء .

ولم يكن البؤس يرضى أن يصحب هذا الفريق الا اذا الممه أصحابه من الجوع والعري والملل والذل والهوان ، والكد الذي يضني ولا يغني ، والهم الذي يسوءه وينوء ، وكان الناس من ذلك الفريق يصحبون أولئك الضيف أشد الصحب ، ويضيقون بهم أشد الضيق ، ولكنهم لا يجدون الى الخلاص من ضيفهم الثقلاء سبيلا الا أن يأتي العدل فيلقى بينهم وبين

ضيفهم ستارا ، ولكن العدل كان بطيئا مسرفا في البطء ، كأنه كان يمشي في القيد ، لا يكاد يخطو خطوات قصارا حتى يجذبه من ورائه جاذب فيرده الى مكانه الذي استقر فيه بعيدا كل البعد عن الناس الذين يحبهم ويحبونه ، ويشتاق اليهم ويتشوقون اليه . كذلك كان ذلك الفريق طامحا الى العدل ، يحرقه طموحه دون أن يبلغه شيئا ، وما أكثر ما مضت الأجيال وليس لها من العدل حظ الا انتظارها له ، وتحرقها شوقا اليه .

فأما الفريق الثاني ، فريق تلك القلة القليلة ، فقد كان يرى بؤس الفريق الأول وشقاءه وعناءه ، وخضوعه للمحن والخطوب ، واحتماله الكوارث والنائبات ، فلا يحفل بما يرى ولا يلتفت اليه ، ولعله لم يكن يرى شيئا ولا يحس شيئا ، كان مشغولا بيسره عن عسر الناس من حوله ، وكان مشغولا بترفه عن شظف الناس من حوله ، وكان مثقلا بالغنى فلا يعنيه أن يثقل الناس بالفقر . كان نظره قصيرا كأدنى ما يكون القصر ، وكانت يده طويلة كأبعد ما يكون الطول ، كان يشتهي فيبلغ ما يشتهي حتى يسأم شهواته ، وكان يريد فيبلغ ما يريد حتى يمل ارادته ، وكان قلبه قد قسا فهو كالحجارة او اشد قسوة ، وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله ، وكان عقله قد حجب عما حوله او حجب عنه ما حوله ، فهو لا يرى ما كان يملأ البيئة التي يعيش فيها من النكر ، فإن رأى منها شيئا أعرض ونأى بجانبه وامعن في الحمق والغرور ، فلم يفكر فيما كان ، ولم يفكر فيما يمكن أن يكون ، وانما عاش للساعة التي هو فيها كأن كل يوم من أيامه قد اقتطع من الزمان اقتطاعا فليس له امس وليس له غد ، والبعد يشتد بينه وبين ذلك الفريق من البائسين المعذبين ، فهو لا يسمعهم الا ان

يحتاج اليهم ، وهو اذا احتاج اليهم لم يرفق بهم ولم يعطف عليهم ، وقلما يتنزل اليهم الأمر تنزيلا أن يشتقوا له من شقائهم سعادة ، ومن عنائهم راحة ، ومن بؤسهم نعيما ؛ وكانت الحكومات تقوم على ارضاء هذا الفريق المترف طوعا أو كرها ، وربما حاول بعضها أن يصطنع شيئا من الاصلاح الخلاصة تنظر الى هذا الفريق من المعذبين في الأرض نظرة فيها شيء من الاشفاق وهم أن يمسهم بحتاج من رحمة ، ولكنه لا يكاد يفعل حتى تزلزل به الأرض ويحال بينه وبين الحكم ، وتلقى عليه الدروس في اثر الدروس لعله يفهم أن غاية الحكم انما هي أن يزداد المترف ترفا ويمضي البائس في البؤس والشقاء .

في بعض ذلك العهد نشرت هذه الأحاديث متفرقة ، فلم تحفل بها الحكومة القائمة اذ ذاك ولم تلتفت اليها ، ولكنها جمعت ذات يوم في كتاب وأرادت أن تصل الى أيدي القراء مجتمعة لتصف المترف وتعزي المحروم ، وهنالك حفلت بها تلك الحكومة والتفتت اليها ووقفت عندها وقفة لم تطل ، وانما صدر فيها الأمر بأن يحال بين هذا الكتاب وبين الناس ، وبأن تؤخذ نسخه من المطبعة الى حيث يصنع بها السلطان ما يشاء ، يحرقها أو يغرقها أو يعرضها أو ما شاء الله من ألوان العبث ما دامت لا تصل الى أيدي القراء !

وكذلك صودر هذا الكتاب فيما صودر من كتب أخرى كانت تريد أن تبصر المصريين بحقائق أمورهم ، وأن تبغض اليهم الظلم والبغي ، وتغري بهم البائسين واليائسين ، ونظرت مصر التي كانت ترى أنها ملجأ العرب في الشرق الأدنى وأنها قائدة الشعوب العربية الى الكرامة والعزة والاستقلال ، وأنها آمنت من بغي الدولة التركية القديمة وطغيانها أحرار سوريا ولبنان والعراق ، نظرت مصر هذه فاذا كتاب قد كتبه أحد أبنائها يحال بينه وبين المواطنين ، واذا هو يسلك طريقه

الى لبنان فيطبع فيه وينشر ، ويذاع في أقطار البلاد العربية ، ثم يعود الى مصر فيدخلها خائفا يترقب ويستخفي به قراؤه استخفاء ، ثم عاد طبعه ونشره في لبنان ، والقراء من المصريين يسمعون بذلك فينكرون فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجهروا بهذا النكير ..

عادت مصر اذن الى مثل ما كانت عليه فرنسا أثناء القرن السابع عشر ، حين كان بعض كتابها يعبرون بكتبهم لينشروها في هولندة مخافة الناس والبطش وطغيان الرقيب . وأحاول أن أفهم مصدر هذا الخوف الذي أغرى تلك الحكومة بهذا الكتاب فحرمت عليه الحياة في مصر ، فلا أجد الى فهمه سبيلا ، فليس في الكتاب سياسة أو شيء يشبه السياسة ، وليس في الكتاب تحريض على النظام الاجتماعي ينكره القانون ، وليس فيه اغراء بتلك المبادىء الهدامة كما كان يقال في ذلك الوقت ، وليس من فصوله فصل الا وقد نشر في مجلة أو صحيفة سيارة فلم تنكره الحكومة ولم تضق به النيابة ولم يقدم كاتبه وناشره الى القضاء .

والحق أنه الخوف الذي يورط في البغي ، وهو الأمر الذي يدفع الى الطغيان ، وهو التنكيل بالكاتب من طريق التنكيل بكتابه ، وهو الاستجابة للهوى والانقياد للشهوة والحكم في الناس بالحب والبغض لا بالحق والعدل ، ولست أعرف أشد حمقا ولا أجهل جهلا ولا أغبى غباء من الذين يصدرون في حكمهم عن الخوف والذعر ، وعن الشهوة والهوى ، وعن الحب والبغض ، فهم يورطون أنفسهم في ألوان من السخف لا تكاد تنقضي ، يحسبون أن قدرتهم تبلغ كل شيء ، مع أنها قدرة انسانية محدودة لها مدى لا تستطيع أن تتجاوزه ، فهي تصادر كتابا في مصر وتظن أنها حالت بينه وبين المصريين ، ثم لا تلبث أن تراه قد نشر في لبنان وعاد الى مصر فقرأه الناس

فيها ، وانتقض عليها كل ما أبرمته ، وفسد عليها كل ما دبرت ، واستبق الناس الى هذا الكتاب وتنافسوا في الظفر به ، ولو قد خلت الحكومة بينهم وبينه لكان منهم القارئ له والمعرض عنه ، ويحسبون أنهم يفهمون كل شيء ، وأن عقولهم تنفذ الى ما لا تنفذ اليه عقول غيرهم من الناس ، وعقولهم مع ذلك عقول انسانية تفهم من الأمر قليلا وتعيا عن فهم الكثير ، ولو قد علمت حكوماتهم ذلك لما كانت الصحف تنشر من الفصول ، ولكف ما كانت المطابع تذيع من الكتب ، ولعطلوا الصحف كلها تعطيلا ، ولأغلقوا المطابع كلها اغلاقا . وأي شيء أدل على ذلك من هذا الأدب الجديد الذي أنشأته حكومات الطغيان انشاء حين اضطرت الكتاب الى العدول عن الصراحة الى فنون من التعريض والتلميح ، ومن الاشارة والرمز ، حتى استقل هذا الأدب بنفسه وتنافس القراء فيه تنافسا شديدا ، وجعلوا يقرأون ويؤولون ، ويناقش بعضهم بعضا في التأويل والتحليل ، واستخراج المعاني الواضحة من الاشارات الغامضة . وانظر الى ما نشر صاحب هذا الكتاب من « جنة الشوك » و « جنة الحيوان » و « مرآة الضمير الحديث » و « أحلام شهرزاد » ، فلن ترى فيها الا رمزا لمظاهر كنا نبغضها ولا نستطيع أن نتحدث عنها في صراحة أثناء تلك الأيام السود ، فكنا نؤثر الغموض على الوضوح ، والرمز والالغاز على التصريح ، والاشارة والتلميح على تسمية الأشياء بأسمائها ، وكانت حكومات ذلك العهد ورقباؤها تقرأ فلا تفهم ، فتخلي بين الكتاب وما يكتبون ، وتخلي بين القراء وما يذاع فيهم من ذلك الأدب الجديد .

وكذلك ظهر الأدب على البغاة ، وانتقم من رقابة الرقباء ، وسجل على الظالمين ظلمهم ، وعلى المفسدين افسادهم ، وأنشأ بينه وبين القراء لغة جديدة يفهمها الأدباء وقراؤهم ،

وفنا جديدا يتذوقه القراء ويحبونه ويؤثرونه على فنون التصريح والوضوح .

والأدب أشبه شيء بالنهر العظيم القوي الذي يندفع من ينابيعه فيشق مجراه حتى يصل الى البحر ، قاهرا ما يلقاه من المصاعب ، مقتحما ما يعترضه من العقاب ، محتالا في شق طريقه أطوارا من الحيل تنتهي به كلها الى غايته ، فليعلم الظالمون وليعلم أصحاب الطغيان وتحكم الرقباء ، كل أولئك أضعف من أن يقوموا في سبيل الأدب والفن أو يحولوا بينهما وبين القراء .

يا لها ليال قاتمة مظلمة كثيفة الاظلام . لم يتح فيها للنجوم أن ترسل سهامها المشرقة ، ولم يتح فيها للقمر أن ينشر ضوءه الهادئ الجميل ، وانما ازدحمت فيها الظلمات يركب بعضها بعضا ، وقد احتملنا أثقالها ونهضنا بأعبائها ثقلا مخنقا ، ولكننا مع ذلك نرسل أنفاسنا حارة محرقة كأنها تنطلق من نار تضيء لقرائنا الطريق وتهديهم الى قصد السبيل .

وها هو الفجر الصادق قد أخذ يشير الى الظلمات المتراكمة المتراكبة بأصابعه الوردية التي ذكرها الشعراء ، فتنهزم متفرقة كأنها لم تزدحم ولم يركب بعضها بعضا ، وما هي الا أيام وأسابيع ، واذا الفجر الضئيل يمتد ويتسع ويملأ الأرض نورا وجمالا وبرا وألطافا ، وهنالك لا يحتاج الأدب الى حيلة يعرب بها عن ذات نفسه ، ولا الى رمز يخفي به سر ضميره على الرقباء ، وانما يتحدث الى قرائه في صراحة ووضوح ويسر ورضى ، ويصور لهم حياة ناعمة وعيشا رغدا وظلا واسعا ، بعد أن صور لهم جحيم البؤس والجهود والشقاء .

صدق الله الظنون ، وحقق الآمال ، وجعل ثورتنا الموفقة مضيا للحق وسندا للعدل وأداة للانصاف وسبيلا الى المساواة وبدل المظلومين في الأرض من ظلمهم رحمة ، ومن شقائهم سعادة ، ومن بؤسهم نعيما .

١

صالح

« إذا سمعت الشيخ يرفع صوته بالتكبيرة الأخيرة فأيقظني ، فإن فعلت ذلك فأنت ابني حقا » . قال الصبي وهو يبتسم لأمه التي كانت تحدثه هذا الحديث وهي تداعب خده : « فإن لم أفعل فمن أكون ؟ » .

هنالك وجمت أم الصبي شيئا ، وتضاحك من حولها بنوها وبناتها ، ولكنها لطمت خد الصبي لطمة خفيفة ظريفة وهي تقول : « إنك لطويل اللسان كثير الخصام » ثم دست في يد الصبي قطعة من سكر وأعادت عليه قولها : « إذا سمعت الشيخ يرفع صوته بالتكبيرة الأخيرة فأيقظني ، وإن فعلت ذلك فلك مثلها قبل أن تنام » . قال الصبي وهو يقضم السكر قضما : « أما الآن فنعم » ، ثم انطلق مسرعا يتبعه ضحك أمه ومن حولها بنوها وبناتها .

وكانت الدار قائمة قاعدة في ذلك المساء ، فقد ألمّ بها ضيف لهم خطر ومكانة في الإقليم ، وهم لم يقبلوا الضيف الأدنى ، وإنما أقبلوا يحملون من الترف والوفادة شيئا كثيرا ، وكانت سيدة الدار حريصة دائما على الاحتفاء بالضيف ، مهتمة في ذلك المساء بالتكبيرة الأخيرة حين يرفع الشيخ بها صوته ليخرج بها من صلاته بعد صلاة المغرب . فقد كانت أصناف الطعام مهيأة تنتظر أن تحمل إلى المائدة حين يفرغ الضيف من صلاتهم مع الشيخ . وكان الثريد وهو أول هذه

الأصناف قد هيئ ، ولكن تهيئته لم تتم بعد ، فقد فت الخبز في طبق كبير ، وأعد المرق ولم ينضج الأرز ، وقطع الثوم قطعا في إناء إلى أن تشتد الدركات . ولكن إعداد هذا الصنف يجب ألا يتم إلا في اللحظة الأخيرة حتى لا يشرب الخبز كل المرق ولا يذهب ريح الثوم والخل في الجو ، ولا يبرد الأرز فيفسد ما أنفق عليه من السمن . من أجل هذا كله لم يكن بد من أن يسمع الصبي لدعاء الشيخ حتى إذا رفع صوته بالتكبيرة الأخيرة أسرع إلى أمه فأنبأها ، وأسرعت هي إلى هذه الأخلاط من الخبز والمرق والثوم والخل والأرز فجمعتها في هذا الطبق الكبير الذي كان ينتظرها منذ حين . فإذا استقام الصنف بهذه الأصناف الأخرى في حفل ورث ، فليس في الإطعام بها بأس ولا جناح ، ولكن الصبي لم ينبئ أمه بشيء ، لأنه لم يسمع شيئا ، وإنما شغل عن التكبيرة الأولى وعن التكبيرة الأخيرة بأمر ذي بال . ولما فرغ الشيخ وضيفه من صلاتهم وجلسوا يتحدثون ينتظرون أن يحمل إليهم العشاء ، وجعل الشيخ يترقب هذا العشاء قلقا لأنه لم يتعود مثل هذا الإبطاء حين يلم به الضيف . وقد هم غير مرة أن يضرب إحدى يديه بالأخرى ليعلم أهل الدار أن الضيف ينتظرون ، ولكنه استحيا وكره أن يظن به ضيفه أهل الدار ، وأن يظن بأهل الدار عجزا أو إهمالا ، فمضى في حديثه يرفع به صوته ، ومرت من وراء الباب إحدى بناته ، فسمعت الصوت يرتفع بالحديث ، وأسرعت إلى أمها فأنبأتها بما لم ينبئها به الصبي ، وما هي إلا لحظة حتى كان الضيف إلى مائدتهم يأكلون ويطعمون .

ولقد كان الصبي خالص النية صادق الرأي ، قد اتخذ مكانه في زاوية من فناء الدار ، هنالك حيث تجتمع قطع من الحديد كان يراها كثيرة ، وكان يعدو إليها فيقضي الساعة والساعات في جمعها وتفريقها وطرق بعضها ببعض ، يجد في

تلك تسلية ولهوا ، ينفرد به مرة ويشاركه فيه أخته الصغيرة
مرة أخرى؛ وقد جلس في زاويته تلك أمام حديقة داره والتزم
إذا أتم التهام قطعة السكر أن يقبل إلى قطع الحديد فيعبث
بها في رفق ما تحدث الشيخ وضيفه إحدى ابنتيه ، مستمعا منصتا
لكلامهم ، حتى إذا سمع التكبيرة الأخيرة يرتفع بها صوت
الشيخ انسل إلى أمه فألقى إليها الشاي ثم عاد إلى أمه
فمضى إليه .

ولكنه لم يكد يستقر في زاويته ويمضي في قضم سكره حتى
أحس يدا تمس كتفه ، ونظر فإذا رفيقه صالح ماثل أمامه
يلاعب كتفه بإحدى يديه ويقبض بيده الأخرى على طاقة من
زهر الحقول يقدمها إليه باسما . وقد نظر الصبي إلى صالح
فرأى ثوبه الممزق قد ظهر منه صدره أكثر مما يخفي ، وقد
انشق عن كتفه فظهرتا منه لناظريه ، والثوب على ذلك رث
قذر يظهر من جسم الصبي أكثر مما يخفي ، كأنه أسمال قد
وصل بعضها ببعض وصلا ما ، وعلقت على هذا الجسم الضئيل
الناحل تعلقا ما ، لتستر منه ما تستطيع ، وليقال إن صاحبه
لا يمشي به متجردا عريانا . ثم رفع الصبي رأسه إلى وجه
صالح فرأى بؤسا شاحبا يشيع فيه ، ورأى ابتسامة فيها كثير
من حزن وكثير من أمل ، ورأى عينين غائرتين تنظران إلى
ما حولهما ، تنخفضان حينا إلى هذا الحديد الملقى على الأرض ،
وترتفعان حينا إلى قطعة السكر في يد رفيقه ، وترتفعان بعد
ذلك إلى عناقيد الكرم هذه التي تتدلى على الجدران وتمتد
على هذه العيدان التي نصبت لتحملها .

والصبي على ذلك كله باسط يده إلى رفيقه بهذه الطاقة
المتلاحمة المتفتحة من زهر الحقول يقول له : « لم أرد أن أعود
إلى دارنا دون أن أمر بك وأحمل إليك هذه الأكمام التي
لم تتفتح بعد . خذها إليك وضعها في إناء فيه شيء من ماء

والمطر بها الصبح ، ثم أقبل عليها فتراها متفتحة عن زهر
جميل طيب الرائحة » . لم يقل الصبي لصالح شيئا ، وإنما
أخذ منه زهراته وأعطاه ما بقي في يده من قطعة السكر ،
وأشار إليه أن يجلس ويعبث معه بقطع الحديد . وقد أخذ
صالح قطعة السكر فأطال النظر إليها ، والتحديق فيها ، وقربها
من فمه ثم أبعدها عنه ، ثم نظر إليها نظرة قصيرة ، ثم دسها
في فمه بين خده وأضراسه واستأنى بها لتذوب في رفق وليطول
استمتاعه بذوقها الحلو . ثم جلس وأخذ يقلب مع رفيقه قطع
الحديد . ثم لم يطل صمت الرفيقين ، وإنما استأنفا حديثهما
عن الكتاب وعن الرفاق وعن الحقل وعن أهل القرية . ونسي
الصبي بهذا كله صلاة الشيخ والضيف والشاي الذي كان يجب
أن يحمله إلى أمه ، ولم يرعه بعد وقت طويل أو قصير
إلا صوت أخته تدعوه من وراء الباب إلى العشاء .

وقد فرغ الشيخ وأصحابه من طعامهم وفرغوا كذلك من
الصلاة الأخيرة وما يتبعها من قهوة ، ودارت عليهم قهوة الليل ،
وجمعت ربة الدار الصغار من بنيها وبناتها إلى طعامهم ،
وافتقدت صاحبنا ذلك المهذار فأرسلت أخته تلتمسه في مظانه.

ولما سمع صوت أخته تدعوه أبطأ في الاستجابة لها ، لأنه
لم يكن يدري كيف يتخلص من رفيقه ، أو لم يكن يحب أن
يتخلص من رفيقه . ولكن صالحا قال له في صوت خافت حزين :
« أجب ، إنك تدعى إلى العشاء » . قال الصبي لصالح :
« وأنت هل تعشيت ؟ » قال صالح : « سأتعشى حين أبلغ
الدار » . ونهض متثاقلا وأدبر يريد أن يخرج ، ولو استطاع
لأقام ، ولكنه مضى . وعاد الصبي إلى أمه وفي يده تلك
الزهرات ، فلما رأته أنكرت نسيانه لما أمرته به ، ولكنها سألته
عن هذه الزهرات من حملهن إليه . قال الصبي وفي صوته
اختلاجة خفيفة : حملهن إلي صالح بن الحاج علي . قالت

أمه : « ولم تعطه شيئا » ؟ قال الصبي : « أعطيته ما بقي لي من قطعة السكر » . قالت أمه : « وما تراه يصنع بقطعة السكر ؟ أتراه يدفع بها عن نفسه الجوع ، ألم تستبقه للعشاء ؟ » قال الصبي مضطربا : « هممت ولكني لم أجرؤ » . قالت أمه : « امض في أثره مسرعا حتى تعود به وحتى تتعشى معه » . وانطلق الصبي كأنه السهم ، ولم يكد يجاوز باب الدار حتى رفع صوته بدعاء صاحبه ، ولكنه لم يحتج إلى أن يصعد ، ولا إلى أن يكرر الدعاء ، لقد كان صالح قائما أمام الدار قد استند إلى الحائط ومد بصره أمامه وقدم إحدى رجليه وأخر الأخرى يريد أن يمضي وتنازعه نفسه إلى البقاء . فلما سمع صوت رفيقه أجاب مستخذيا : « ها أنذا ، ماذا تريد ؟ » قال الصبي : « أريد أن تبقى لتتعشى معنا » . ولم يقل صالح شيئا وإنما تحول إلى رفيقه ومضى في أثره هادئا مطرقا كأنه الكلب يتبع صاحبه إذا دعاه .

ولم يكد الصبي يغلق الباب من دونه حتى رأى إحدى أخواته قد وضعت في زاويته تلك كرسيا مستديرا وعليه صينية مستديرة مثله ، وقد كثرت على هذه الصينية الأطباق فيها من كل أصناف الطعام التي قدمت للضيف ، وأبت أخت الصبي أن تشارك الأسرة في عشائها وآثرت أن تقوم على خدمة هذين الرفيقين . حتى إذا فرغا من طعامهما مضى صالح موفورا وعاد الصبي إلى أمه راضيا . فقالت له وهي تمسح رأسه : « إذا زارك رفيق لك في وقت العشاء فلا ينبغي أن تدعه ينصرف دون أن تدعوه إلى مشاركتك في الطعام » . ثم قالت له بعد صمت قصير : « هل تعلم أن صالحا إنما حمل إليك هذه الزهرات ليتعشى ؟ » قال الصبي : « لا أعلم » . قالت أمه : « لقد رأى الأضياف حين أقبلوا ، ورأى ما حملوا من الطرف والهدايا ، وعلم أن سيكون في الدار خير كثير حلا

السه ، فأراد أن يصيب منه شيئا ، واتخذ أزهاره حيلة صلة بل جاء إلى الدار ليقدمها إليك » . قال الصبي : « لو رأيت ثوبه وقد بدا منه صدره وظهره وكتفاه ! » قالت أمه : « إذا خرجت من الكتاب غدا فاحمله على أن يصحبك ، فإن عندي من ثيابك ما يكسوه » .

ثم انصرفت إلى ابنها وبناتها تحدثهم عن الطبخ ومن العشاء ، الذي هذه لأنها نسيت أن تحرك الأرز حين ألقته في الماء وهو يضطرب من الغليان ، وأوشك هذا اللون من ألوان الطعام أن يفسد ويصبح عجينة متماسكة لا تصلح لشيء ، ومن حق الأرز ألا يلتئم ولا يتماسك وأن تفترق حباته وتمتاز ، والتي على ذلك لأنها وقفت بالفالوذج ثم تركته سائلا تغيض به الملاعق كأنه الحساء ، ولم تجعله جامدا تقطعه الملاعق قطعا ولم تهمل تحريكه حتى تتخلله تلك العقد البغيضة التي لا تجعله سائلا ولا يسيرا ، وإنما تجعله سواء سهلا لا يبلغ الأفواه حتى تدعوه الحلوق ، وهو فيما بين ذلك خفيف حلو المذاق . وإنها لتتحدث إلى بناتها هذه الأحاديث التي كانت تعلمهن بها فنون الطبخ والتي كان أبناؤها يسمعون لها فيغرقون في ضحك متصل ، وإذا الصبي يقطع عليها حديثها ويسألها ما بال صالح لم يتعش في داره ؟ أجابت أمه : « ألم أقل لك إنه أحس أن سيكون عندنا خير كثير فأراد أن يصيب منه ؟ » قال الصبي : « فإني أرى الأضياف يلمون بجارنا كما يلمون بنا ، وأعرف أن عند جارنا خيرا كثيرا فلا أسعى إلى أترابي من أبنائه ولا أحاول أن أصيب مما عندهم » . قالت : « لأنك لست في حاجة إلى ذلك فلست محروما » . قال الصبي : « فصالح محروم إذن ؟ » قالت أمه متضاحكة ، وقد أخذ إخوته من حوله يضحكون بلجاجته وإلحاحه : « لأن أباك ميسر عليه في الرزق ، وقد قتر في الرزق على أبي صالح » . قال

[illegible]

لا [illegible] ولو كنت اعلم [illegible] لأني لا أومن بها ولا [illegible]

[illegible] هو كلام يخطر في نفسيه لم الحمه ، فمن [illegible] ومن خالف بقراءته [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الآن ، فلم تكن شخصي هذا الصبي ولم يكن شخص [illegible] ، وانما كانت الاحداث التي حدثت للصبيين هي التي [illegible] من شرقها الى غربها ومن شمالها الى جنوبها ، [illegible] في المدن ويوجد في كل مكان ، يملأ مصر [illegible] ، وهو مع ذلك يشعر الناس بأن مصر هي مثله [illegible] هذا الحديث مهما يكن

لا [illegible] أن [illegible] أو [illegible] من [illegible]

[illegible] هذا [illegible] والذي [illegible]

[illegible]

[illegible] هذا العسر [illegible]

[illegible]

وقد ظهرت على وجهه [illegible]

الاستطر والعوز [illegible]

[illegible]

يا صيدي القارئ الكريم أين أن هذا الكلام [illegible]

[illegible] كل [illegible] ، فأنت تلقى في كل يوم ألف صالح وصالح

[illegible] لواحد منهم خطرا أو تعرف له وجودا ، قد تعوّدت لهم واتصلت بمشتركك أيامهم حتى أصبحت الحياة

[illegible] شيئا يسيرا مألوفا لا يحفل به ولا يلتفت إليه ، وحتى

[illegible]

[illegible] والماهية ، ولا تلتفت إليه كما أنك لا تلتفت إلى الهواء

[illegible]

[illegible] جميلا كل واحد منهم تلك وعملك ويشمل

[illegible] ، فأيهما خير ، أن الملك إلى صالح هذا البائس

[illegible]

[illegible] الوجود ، حتى أصبحنا أو كدنا نعتقد أنه غير

[illegible] حيسما الملك إلى صالح [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الاحتام ؟ قال العريف [illegible]
[illegible] كلها ؟ قال العريف : نعم الا ختم صالح بن [illegible]
قد ضاع ؛ وما أشد حاجة هذا الفتى الى [illegible]
لا يطيع أمرا ولا يسمع كلاما ولا يخرج من الكتاب مع العصر
الا ليمضي الى [illegible]

[illegible]
يسألون الكاتب الفرنسي الذي ذكرته آنفا — هنا سأل القارىء
عن هذه الاحتام ما هي ؟ وماذا يمكن أن تكون ؟ ولابد من
أن أجيبهم ، فأكثرهم من أبناء هذا الجيل الذين لم يضطروا الى

[illegible]
[illegible] الله قد خالف الامر [illegible]
[illegible] هذه الاحتام في كل يوم
[illegible]
[illegible] آية الختم عن فخذه قبل الأوان ، ولست أدري
[illegible] القارىء أو لا يعرف أن [illegible] في الكتاب قد كان رمز
[illegible] والفساد ، كما أن [illegible] قد كان رمز السذاجة
[illegible] ، ولكن المحقق أن الصبية والصبيان كانوا يفترقون
[illegible] هذا الخاتم في غير اكتراث ، ولا يكادون [illegible]
[illegible] الى الله ويلقوا أنفسهم فيه [illegible]
[illegible] بما يقضون اليه [illegible]
[illegible]

خوفا يسيرة ولا خطيرة لنفسه في العريف ، ولذا ظل على
العريف لبلاد صالح عليه مشوشة ، ولم يسأل نفسه أكان هذا
الابتعاد عن عجز أم كان عن عمد ومكر . فأراد أن يؤديه فأفشى
أمره لسيدنا ، ولو ذكر الصدق لما خص صالحا بهذه الوشاية .
وكان أمين يعلم هذا حق العلم كما كان يعرفه غيره من أترابه ،
ولأمر ما امتلأ قلبه فجأة حبا لصالح وعطفا عليه ورحمة له .
فلم يكد يسمع العريف النحيب يجري به سيدنا الفرس حتى
صاح بأعلى صوته [illegible] إن العريف لم [illegible] ، فليس
صالح وحده هو الذي فقد خمسه ، وإنما ضاعت الأرغفة جميعا
لأنهم يذهبون جميعهم إلى النهر أو إلى القناة ، ولكنهم يرشون
العريف بما يحملون إليه من طرفه ، فأما صالح فلا يحمل إليه
شيئا . وكانت النتيجة الطبيعية لهذه السماحة أن أديرت
الفلقة على ساقي صالح وعمل السوط في رجليه حتى تعبتا ،
ثم أديرت الفلقة على ساقي أمين ومس السوط رجليه مسا
خفيفا لم يدمهما ، ولكنه علم أمينا أن السماحة والصراحة وقول
الحق خصال لا تحسن في جميع المواطن .. ولو وقف الأمر
عند هذا الحد لهانت المحنة وسهل احتمالها ، ولكن الأتراب
والرفاق أعرضوا عن صالح وأمين واتخذوهما هدرا ، وجعلوا
يكيدون لهما ويسكرون بهما ويشيعونهما من الكتاب غدوا ورواحا ،
وقد عاد صالح مع أمين إلى داره لا يكاد يحس [illegible]
رجليه ، ولكنه وجد عند رفيقه تسلية و[illegible]
ثم أمين ترى هذا البائس المسكين [illegible]
والرثاء يبعثني الخير [illegible]
لم يكد صالح يراه حتى جن جنونه وخرج عن طوره [illegible]
ومس الفلقة التي دارت على ساقيه والسوط الذي مزق
قدميه ، والحسم ليسرع إلى الماء ويغسل قدميه فيه ، وليحس
آية النعم الجديدة ، وليتعرض لوشاية العريف ، وغضب

سيدنا ، فما ينبغي أن يلبس هذا الثوب الجميل دون أن
يستحم ويزيل عن جسمه آثار ذلك الثوب البالي القذر .
قالت له أم أمين : لا بأس عليك ، فستطلب من سيدنا أن يعفيك
من الفلقة والسوط غدا . وانصرف الصبي فرحا مرحا مسرورا .
و[illegible] عن أمه : ألا تنبئيني الآن لماذا ضرب سيدنا صالحا
[illegible] ضربا حتى أدمى رجليه ، ولم يضربني أنا إلا عبثا ؟
[illegible] لأن صالحا [illegible] الحسم وخالف الأمر وانغمس في الماء
[illegible]
[illegible] في العريف .
[illegible] خطرها أن تلقى عقابا يسيرا . قال الصبي : وأنا مع ذلك
لم أقل إلا الحق . قالت أمه وهي تضحك : فإن الحق لا يقال
في جميع المواطن . قال الصبي : وكيف السبيل إلى أن أعرف
المواطن التي يقال فيها الحق ، والمواطن التي يقال فيها الباطل ؟
[illegible] أمه وهي تضحك : ستعرف هذا [illegible]
[illegible] ، أما الآن فانصرف إلى صديقك هذا الذي في زاويتك
[illegible] والعب به ، وتحدث إليه حتى تدعى العشاء
وذهب أمين إلى صديقه فلعب به ، وتحدث إليه وأحدث
[illegible] الضجيج والضجيج ما [illegible] الله أن يحدثه ، ولكنه انصرف
[illegible] صديقه وزاويته وسعى إلى أمه يسألها : ما بال صالح
لا يحمل إلى العريف مثل ما يحمل إليه غيره من الطرف ،
الهدايا ؟ قالت أمه : لأن صالحا فقير معدم لا يجد ما يقوت
به نفسه فضلا عن أن يجد ما يهدي إلى العريف . قال أمين
[illegible] كان صالح فقيرا معدما لا يجد ما يقوت به نفسه وما يدفع
به [illegible] العريف ؟ [illegible] أمه [illegible] الحاجة . فقد
[illegible] ولكن الصبي
[illegible] لشأنه وإنما مضى في الانتقال عن أمه ، فلم تستطع
[illegible] إلا حين أظهرت له الغضب وأطرقته إطراقا كاد يبكي له ؛

جبرة بما يجب عليه من يقضي هذه الفترة التي عاشت فيها أمه في البيت !

وربما [illegible] القارئ [illegible] إلى هذا السؤال ملاحظة [illegible] شيء من القسوة والصرامة والغلظ [illegible] في نفسه لو أن الكاتب سلك في قصة هذه الغربة [illegible] الصفحة التي وصف فيها انتقال القصة [illegible] في أول حقيقته ولا سيما بموت أمه وتزوج أبيه ، ولا سيما من هذه المفاجأة التي لم تكن في حاجة إليها ، ولكني أعيد على القارئ ما قلته آنفا من أني لا أصنع قصة ، وإنما أصور حدثا ، وأضيف إلى ذلك أن الذين سيقرأون الأحاديث لا يفتشون بين يديها هذه المقدمات التي يبينون فيها الوطن والبيئة والأسرة والزمان والمكان إلى آخر هذا الكلام الكثير الفارغ الذي تمج به النفس ، [illegible]

[illegible]

المدن والقرى ويسرف على نفسه وعلى الناس في الوعود ، والتي إذا [illegible] انتهى إلى [illegible] كما قال ، [illegible] وحدي — كما كان يقال أيضا — [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] كان [illegible]
سعيدا [illegible] في ظل هذا الحنو الهادئ المطمئن ، كان أبيه
[illegible]
[illegible] سنين والبنات فأثيرت حصانا له وشيء به ،
[illegible]
الآخر في رعاية الحب المحرور

حدثني أيها القارئ العزيز الآن من الحق أن أعرض عليك محصول هذا كله ، في أول هذا الحديث لنتفق بين وبصالح وناصين والسحر الذي محمل إليك هذا الحديث ، أم كان الحق أن أذهب إلى المذهب اليسير الذي اخترته ، وأن أحدثك بكل [illegible] به إليك ؟ أنا أعرف أنك ستجد [illegible] ، وستذهب في خلافك ومراتك مذاهب مختلفة [illegible] وما تشاء ، أما أنا فقد نهجت المذهب الذي أعرفه ، وحدثتك بالأمر على النحو الذي آثرته ، وانتهيت منه حين إلى أن صالحا قد استحم في القناة ودخل في ثوبه الجديد وعاد إلى [illegible] أبيه مسرورا بهذا الثوب الذي لبسه جديدا ثوبه القديم [illegible]

ولكن امرأة أبيه نظرت إليه من رأسه إلى قدمه ، فرأت [illegible] ثوبه الجديد ورضيت عنه ، ورأت ثوبه القديم وضاقت به ، ثم أدارت بصرها [illegible] ، فرأت أمها وشيما قد ألبسا ثوبين [illegible] كذلك الثوب القديم ، يبديان عن الكتفين كما يبديان عن [illegible] والصدور ، ثم ردت النظر إلى صالح في ثوبه الجديد ، [illegible] عادت النظر إلى ابنتيها في ثوبيهما القديمين ، ثم ارتدت [illegible] إليهما وقد ارتسمت في نفسها الصغيرة واضحة جلية ولكنها [illegible] بغيضة ، فإن هذا الثوب الجديد لم يخلق لصالح ، [illegible] خلق لابنتها محمود ، ولم يشرف السبع من عمره حتى كان [illegible] قد تلقى من أبيه ومن امرأة أبيه نكرا ، فضربه ضربا مبرحا

[illegible] وجود من [illegible]
[illegible] وعصر الفتى من الذهاب الى الكتاب من عنده ،
والنام في الدار ملقى في زاوية من زواياها يحمل [illegible]
ويرمي في عنف ، حتى اذا استطاع أن يمشي على قدميه مضى
[illegible] يشقى فيه بخطى الحروف وقسوة سيدنا ، [illegible]
[illegible]

لذلك عرف أمين لصة وجهه البائس ، فلم يدر علمه
الثانوية كيف مضى في هذه القصة ، او انه لو يتحدث الى
[illegible]
[illegible]
ومن الهادىء المطرد ، فهو للمن [illegible]
[illegible] في ذلك ام شخص لها [illegible]
[illegible]
[illegible] الرحمة [illegible]
احمر تكسو به وجهه المسكين [illegible]
[illegible] الى ان الحياة تجري [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
ذلك اليوم ، فلم يرهما حين بلغا ذلك المكان الذي تصل فيه
الخطوط الحديدية من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب
الى الشمال ، الا جماعة مزدحمة تتصايح ويدفع بعضها بعضا ،
ولم يبلغا هذه الجماعة حتى رأيا منظرا راعهما وروعهما . جثة
[illegible] والقى عليها ثوبه الخشن يستر ملامحها عن
العيون ، [illegible] قائمة تلطم وجهها وتضرب صدرها وتشق
ثوبها وتنثر في الفضاء شعرا مرسلا ، فأما الصبية فكانت

[illegible] كان عنقه في تلك الأيام ، ولما امرأة
[illegible] الصوت الى
[illegible] امه وهم أن
[illegible]
[illegible] الى اهله
[illegible]
[illegible] الأمر [illegible]
[illegible] المعرفة ، اسمها [illegible]
[illegible] من اصدقائه ، فمسح
[illegible] رأسه وقبل بين عينيه وقال له في صوت رقيق [illegible]
[illegible] الكتاب اذا كان الصبح ، لانك ستذهب الى المدرسة
الابتدائية في عاصمة الاقليم .

قال أمين بعد أن تحدث به السن واصبح رجلا ذا خطر :
ما زلت أرى تلك الجثة قد القى عليها ثوب خليط ، ولكني
انظر الى وجهها فلا ارى وجه سعيد وانما ارى وجه صالح ،
ومع ذلك فلم أر صالحا حين أكله القطار .

———

٣



كان يسعى في ظلمة الليل الفاحمة، قد خفي عليه كل شيء، وختم على الكون سكون رهيب مرهق، ولو انه رفع رأسه الى السماء لرأى فيها خطا من النور ضئيلة مشرقة، ولكنه لم يكن يرفع رأسه الى السماء، ولم يكن يطرق برأسه الى الارض، وانما كان يمضي امامه يمد بصره كأنما يريد ان يخترق به هذه الحجب الكثيفة من الظلام، بل لم يكن يلتفت عن يمين ولا عن شمال، وانما كان اشبه شيء بقطعة من الحديد قد صورت في صورة انسان، ولو قد عدا او اسرع الخطو لجاز ان يشبه بسهم حين يشق هذه الظلمات المتكاثفة امامه، ولكنه لم يكن سريع الخطو، كان يسعى هادئا مطمئنا يتردد في سعيه كأنما تدفعه الى الامام قوة خفية رفيقة، فهو يسعى سعيا متأنيا رفيقا، لا يستعجل شيئا ولا يلقى عنه شيء وانه يمضي الى غايته كما يمضي الزمان الى غايته، في أناة ومهل وحزم، ولو كان شاعرا او راوية الشعر او على حظ من الثقافة، لذكر تلك الاصابع الوردية التي تكشف ظلمة الليل بأن تنجلي، أو لتصور سهما ضئيلا من الفضة النقية يمضي في هذه الظلمات المتكاثفة، فتنهزم امامه هذه الظلمات متهالكة وتتساقط امامه نجوم السماء في الافق الغربي كأنما يدعو بعضها بعضا الى الفرار، ولكنه رأى نور الفجر بعد قليل الدقيق وراء النهر، وسمع صوتا قد انبعث من ورائه في الجو ضئيلا نحيلا ماضيا امامه الى الشرق، كأنما يريد ان يلقى

[illegible] ذلك الصوت [illegible]
[illegible]
[illegible] الاحياء [illegible]
[illegible] لم يصرح من اعماق ذاكرته ادبا قديما او حديثا، لانه لم يكن من هذا كله في شيء، ولم يكن يعدو ان شيئا من هذا كله يمكن يوجد او يخطر لاحد على بال، وكل ما في الامر ان اخاه [illegible] قد قال له ذات يوم: انك تسعى في ظلمة الليل [illegible] الصبح، وتجد تلك الطريق [illegible] هذه الآية من القرآن ورددها في قلبك او في لسانك، فانها [illegible] قرأ الآية الكريمة:
[illegible]
[illegible] في ظلمة الليل، الا [illegible]
[illegible]
[illegible] صوته الى [illegible]، فاس كل [illegible]

وكان في تلك الليلة يمضي امامه، ترتل قلبه هذه الآية [illegible] فلما رأى ما رأى، وسمع ما سمع، لم [illegible] وانما كف عن التلاوة وسأل نفسه ما: أيمضي الى النهر امامه، أم يرجع الى المسجد ورائه [illegible] فاذا ادى الصلاة مضى الى النهر، فاستخرج منه ما يسوقه [illegible] على نفسه هذا [illegible] الى المسجد فادى صلاته لم يكلم احدا [illegible] كلمه احد، ثم استأنف سعيه الى النهر هادئا مطمئنا

وحيداً ، لا يذكر شيئاً ولا يكاد يفكر في شيء ، وانما هو قطعة
جامدة قد صورت في صورة انسان تمضي امامها في اناة ومهل ،
لا تنظر في السماء ولا تنظر في الأرض ، ولا تلتفت الى يمين
ولا الى شمال ، ولا تحس جلال الليل المهموم ، ولا جمال الصبح
المسفر ، وانما خرجت من ذلك البيت الحقير ومضت الى ذلك
[illegible]

حصيرة ذاك لا ينطق بكلمة ولا يفكر في شيء حتى [illegible]
[illegible]
مكانه [illegible] لا [illegible] حركة ولا ينطق بكلمة ، ولكن نفسه ما [illegible]
[illegible] استطاعت نفسه أن تحس حسرة او الما ،
وربما كتب [illegible] ما لطلق ، وحمل [illegible] أكثر مما
[illegible]

وينظر من حوله ... ويرفع رأسه الى السيد [illegible]
ويستطيع أن [illegible] بعض الأصدقاء [illegible]
[illegible] الى بيت الصدفة ، [illegible]
هذا الصيد الرائع الجميل انه لا ينبغي أن يباع في السوق ،
وانما ينبغي أن يحمل الى بيت الصدفة [illegible]
يرفق به ويعطف عليه [illegible]
الى داره ما قد يتاح له من صيد حسن .

وكانت فتاة من فتيات الدار قد نهضت مع الصبح قبل
أن تستيقظ الأسرة من نومها ، فعملت بما تعودت أن تبدأ به
مع الصباح من كل يوم واخذت تكنس فناء الدار وترده الى
[illegible] التي ينبغي أن يكون عليها ، فتصفف الكراسي في أماكنها ،
وتنفض التراب عن تلك الدكة الطويلة التي كانت [illegible] في صدر
الفناء ، وتهيئها لمجلس سيدنا حين يقبل بعد [illegible]
السورة ويشرب القهوة ويتحدث اليها حديثا طويلا [illegible]
[illegible]
الفتاة في ذلك واذا بالباب يطرق طرقا خفيفا ، فاذا فتحته
رأت قاسما حريصا تظهر على وجهه الشاحب آية الرضا والأمل
ومن ورائه غلام يحمل عنه [illegible]
الغلام ، ثم دخل الرجلان [illegible] ووضعا صيدهما العظيم
على هذه الدكة في صدر الفناء . وقال قاسم في صوته الخافت
الرتيب : ما لفتاة [illegible]
صاحبه أن ينصرف ، ولكن [illegible]
راضيا وولى مسرورا . وهم قاسم أن ينصرف ولكن الفتاة
أشارت اليه أن أقم ، ثم غابت عنه لحظة وعادت اليه بشيء
مما يؤكل وصحن من القهوة فأكل وشرب [illegible] وهو في ذلك
واذا سيدنا الضرير يقبل كما تعود أن يقبل في كل صباح متكلفا
شيئا من الضعف في [illegible] رافعا صوته [illegible] وجه

[illegible] يفتح الباب
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
هذا القطر ويستهان هذا الصيد [illegible] الى ضحكة عالية
[illegible]
[illegible]
الأمر [illegible] وانما أخطأ
قاسم موضع هذه السمكة في غير موضعها [illegible]
ما الصيد والصائد من عمدة سيدنا [illegible]
تضاحك الشيخ العزيز من [illegible]
ثم جلس على كرسي وأبى أن [illegible]
قبل الضراعة لا تمضي عن قهوته تلك التي تعود أن يشربها
مبكرا من الترتيل وقد شرب القهوتين ، ولكنه قال وهو
[illegible]
[illegible]
لأعطي خادمة منذ اليوم ، أنشئ السيدة [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible] كلهم [illegible]
[illegible]

النهار [illegible]

[illegible]

[illegible] طارق الطرق في هذه الحديثة ، فانا [illegible] ان اذهب معه الى السوق التي تذهب اليه [illegible] الصياد ، وانا استطيع ان اذهب الى هذه الدور ، التي يلم [illegible] سيدنا كل صباح ليقرأ القرآن ، ويشرب فيها القهوة ويجاذب اهلها اطراف الحديث ، لا يضعف صوته ، ولا يضيق صوته بما يلقى فيه من القداح القهوة المرة ، لم اذهب معه الى الكتاب الذي سينتهي اليه [illegible] استطيع ان اترك قاسما يشتري في السوق ما يشاء ، وان اترك سيدنا يطوف بالدور ويسعى الى الكتاب ، وان اقيم في الدار لا ابرحها ، والى اسم السمكة التي حيث [illegible] واستقرت في مكانها من الطبخ بين الفرن وهذا الصف الطويل من الكوانين التي تحتلف منه وضيقا وارتفاعا وانخفاضا ، [illegible] على هذه السمكة الضخمة ، يقطعها ويقطعها ويحشوها لما يراد ان [illegible] من الوان الطعام

ولكني لن اقيم في الدار ، ولن اتبع قاسما ، ولن اتبع سيدنا ، وانما ساخرج من الدار ، وسانحرف الى الشمال فامضي حينا ، ثم انحرف الى الشمال مرة اخرى فامضي قليلا ، ثم انحرف الى يمين فامضي امامي خطوات ، لم اجد في اقصى هذه الحارة الحقيرة حجرة حقيرة قد انحدث من الطبخ ، لا من

الحجارة ولا من الطوب الاحمر ولا من اللبن ، [illegible] من الطين الذي [illegible] تسوية ما ، وخلط بها شيء من [illegible]

[illegible]

[illegible] هذا [illegible] الحقير لاني احب ان اجد فيه امومة [illegible] [illegible] بالستين [illegible] وهو ينهض متثاقلا يجر قدميه ، ويجر [illegible] الصليق من ورائه ، ويلتمس [illegible] في طلنا الليل يرجو ان يبلغ النهر وان يجد فيه [illegible]

[illegible]

وسكينة [illegible]

[illegible]

كأنما تحركت الأعصاب والعضلات في [illegible] نحو
الأرض [illegible] وأصبحت الفتاة صامتة لا تقول شيئاً [illegible]
لا تأتي حركة ، وقد أفاقت أمها [illegible]
تظهر منها يرجع الحدث ، هنالك تحركت [illegible]
وجهها شيء من [illegible]
[illegible]
دهشت وما كنت أحسبني ؟ ثم انحرفت بجسمها الأعلى الى
[illegible] بعيداً عن سطح النخيل كانت [illegible] في

تغلب الخمر [illegible] لم تستطع الفتاة [illegible] هذا العود
[illegible]

[illegible]
وجمعت شعر [illegible] بين يديه ؟ وجعلته تجلب الفتاة من
شعرها في غير رفق وتدفع [illegible] وجهها في غير نظام ، وقد
[illegible]
المكتوم [illegible] الموت إذا لم تتكلم [illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible] كنت أصبح حين [illegible]
[illegible]

وأقمت معه [illegible] ، ثم [illegible] حتى [illegible] أصبح أن [illegible]
[illegible]

[illegible]

آخر الأمر [illegible]
وبأن قد كان بينها وبين [illegible]

[illegible] لا يكفي [illegible]
هذه [illegible]
[illegible]
ولا [illegible]
[illegible]

هذه [illegible] لا [illegible] ، ولكن لابد
[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]

به النساء والفتيات من أهل المدينة يأخذن منه صفعة الرجيم
ويدفعن إليه تعصين القليل ، وسكينة تنظر وتشتهي ولكنها
لا تستطيع أن تأخذ شيئاً ، لأنها لا تستطيع [illegible]
فرق الحاج محمود لهذه الفتاة ، [illegible]
لتشتري من سقط المتاع هذا شيئاً قليلاً الذي له ثمناً قليلاً
وملأ قلب الفتاة به فرحاً وأعم به نفسها سروراً ، وأفاض
على وجهها بهجة زادتها حسناً إلى حسن وروعة إلى روعة
ومنذ ذلك اليوم وقع في قلب الحاج محمود لهذه الفتاة [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] كما حملتا إليها من طعام [illegible]

[illegible] لا تحب أن [illegible]

[illegible] وهو يقول : لو رزقنا الله مكانها غلاما لم تخرجي
لهذا الخزي ! ثم يعيد " لهذا الخزي " ثم يخفت الصوت حينا
ثم يعود أشد خفوتا وأعظم بعدا وهو يقول : ما ينبغي للفتاة
أن [illegible] ! ثم ينقطع صوته فلا تسمعه امرأته [illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible] في ظلمة الليل [illegible]
[illegible] الإسراع [illegible]

[illegible]

[illegible]

لم أحس يوما بأحده من جميع المطارة ؟ لم لم يحس [illegible]

[illegible]

[illegible] بعد ذلك [illegible]

[illegible] لم تنتظروا كلما سعى الى الهوى من آخر الليل ؟ ولكنهم أطالت الانتظار ، ولم تظفروا منه بشيء

وقد يحب القارىء أن يعرف كيف عبث بهما الأمل ؟ وكيف بعثني بهما اليأس ، وكيف لعبت بهما صروف الأيام ؟ ولكن القارىء ليس في حاجة الى أن أمضي عليه هذه الخطوب ؟ فأيسر شيء عليه أن ينظر الى هذه الحياة الصاخبة من حوله ؛ ليرى فيها ؟ أموات وسكينات ؟ كثيرات لا يحصين بالمئات ولا بالألوف ؟ وانما يحصين بعشرات [illegible] تطلع الشمس عليهن كل يوم مشرقة [illegible] وتكلهن لا تحمل اليهن [illegible] ولا [illegible] ولا أملا [illegible] [illegible] ولكنه لا يحمل اليهن راحة ولا أملا في الراحة ، وانما يدفعهن

الى يوم لقبل ضيق كريه يشقين فيه بأحلام بغيضة [illegible] [illegible] ولا [illegible] كل [illegible]

متقنا كلما صنع لى تمثل وتمثيل والأذا، كالحسن ما تحمل المثال

وكانت إذا تكلمت، وجعت علينا صبابيا حمتك



٣
خديجة

العمال [illegible] النهار [illegible]
انكم لا [illegible]
[illegible]
[illegible] لأنها محجوبة [illegible]

[illegible] محجوبة [illegible]
تصبح لهم [illegible] ولتصبح لهم من الخبز قوت [illegible] هو [illegible]
الذي يتخذ من الذرة [illegible]
لتصبح خيرا من خبز القمح ، ولكنت تراها في [illegible]
بهذه النار أو تلك [illegible] العجين [illegible]
[illegible]
[illegible] الذي ينبغي أن يسوى
فيه [illegible]
النار [illegible] في الأفران والطوى
والطوق ، وكنت تراها حين يرتفع الضحى ويوشك النهار أن
ينتصف عاكفة لم ينتهيا ذلك الوضع الطبيعي ، ولقد جعلت
أجرها طائفة من هذا الخبز [illegible]
مع [illegible]
الأيام ، [illegible] الى
[illegible] أو لتعلك بعض الأسر الموسرة على هذه الأسر
[illegible]
أو [illegible]
من [illegible] والجبل وهذه [illegible]
من أن يستطيعوا بها إلى الحياة

وكان [illegible] رجلا مقترا عليه في الرزق ، [illegible] من
[illegible] لا [illegible]
التي تتخذ من الحجر والآجر واللبن ، وإنما [illegible] البيوت
والحجرات التي تتخذ من الطين المخلط : تراب يجمع ويعجن

[illegible]

[illegible]
[illegible] تصل مع الصبح [illegible] ما [illegible] من [illegible]
[illegible] ، وتعود مع الليل المظلم الى بيت أبويها [illegible] الليل فيه
وكانت [illegible] بهذه الحياة [illegible] على [illegible] من [illegible] كان
[illegible] ولا [illegible]
[illegible] لا [illegible] يأخذ من الأشكال [illegible]
[illegible] واخوتها الصغار ، ولكنها لم
[illegible] من هذه [illegible] لفظ أو لحظ أو حركة ، إنما
[illegible]

الحزن بعمه مـنـه مرة ، لتعبر هذا الصوت الملوءه الملتب
[illegible] بهذا الحزن
[illegible] في الحمل ، مرا
[illegible]
عنها [illegible]
[illegible]
أن تنتبه بالحزن ، ولكنها [illegible]
[illegible]

وكانت ربة الدار محبـــة لخديجة رفيقة بها ، عطوفا على
اهلها ؛ البرهم كلما سمحت لها الفرصة ، وتحسن اليهم كلما
[illegible]
[illegible] العمل اليسير الهين او النشاط الخفيف ، تأجرها
على ذلك لا بالقروش التي تعطيها [illegible]
[illegible]
او من [illegible]
وبالطرف تطرفها به في أيام [illegible]
حين تلم أيام السعة والرخاء [illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] لى العمل
[illegible]
بنفس يائس مرهف الحصوى التي تشعد لادارة [illegible]
واستخراجه منها ؛ وخير يصيد من هذا المنظر الاليم طيحان من

حرف قد تحيا ناحية ، وصحوبه تنظر اليهما وتسأل عنهما
[illegible] في حين يضعها في حضن الشعر ، وتمس الأخرى في
[illegible]

قالت ربة الدار منكرة : ماذا أرى وماذا أسمع ! ثم أسرعت
الى محبوبة فردتها عن الصلاة وانتزعت من يدها [illegible] ، والى
[illegible] وفرقت بينها وبين أمها ، ولكن محبوبة [illegible]
في بكاء متصل [illegible] ثم لم تلبث أن [illegible]
[illegible] من النساء حتى
[illegible] في التهيب والوجد ، حتى اضطرت ربة الدار أن
[illegible]

فلما كانت محبوبة الى [illegible] واستقبلتها ربة الدار عن [illegible]
[illegible] الصلاة ، سمعت منها كلاما لم يكد يدع نفسها حتى
املئت دموعها له [illegible] سمعت منها أنها وجدت في زاوية من
[illegible]
[illegible]
[illegible] فيها
[illegible]
على اهلها [illegible]
[illegible]
في الورق ، [illegible] التي [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
ما صنعهم من صاع !

[illegible] ربة الدار [illegible] ابيها
[illegible]
[illegible] ابكم [illegible]

معها دائماً ، ومن أدرى إلا أنها قد نسيتها حين أقبلت على عملها مع الصبح ، فظلت محبوسة : فإنها لم تحمل إليها الصبي طعاماً كما أنها لم تحمل إليها طعاماً غداً [illegible]
قبل ، وتبين أن خديجة كانت [illegible]
سيدتها أن تحمل من الطعام إلى أهلها ، وكانت تستحيي أن تحمل إلى أهلها هذا الطعام ، فكانت إذا خرجت بالطبق أو الأطباق تخففت مما فيها ، تهديه إلى الفقراء إن وجدتهم في طريقها الفقراء ، وتلقيه إلى الكلاب إن لم تجد في طريقها إلا الكلاب ، وتلقيه في عرض الطريق إن لم تجد في طريقها ناساً ولا كلاباً ، ثم تضع الأطباق في زاوية من زوايا البيت ، فإذا أصبحت عادت بها إلى الدار باسمة ظاهرة الرضا ، كأنها قد وسعت على أهلها بما حملت اليوم من رزق . ولكنها في ذلك اليوم قد أعجلت عن حمل الطبقين ، ولا تذكرهما إلا حين رأت أمها مقبلة تحملهما وتسألها في عنف عنهما أين كانا ومن أين [illegible] ، ثم لا تجيب ولا تنتظر منها جواباً ، وإنما تضربها بإحدى يديها وتلهب جسمها بذلك الغصن اليابس في يدها الأخرى ، وبأعلاها الغضب فتصيح ، والفتاة بأعلاها الألم فتبكي ، وكلما أمعنت الفتاة في النحيب أمعنت أمها في [illegible]

منذ ذلك اليوم عرفت ربة الدار أن خديجة خادم لا كالخدم ، وفتاة لا كالفتيات ، فآثرتها بالرقة ، وأحسنتها بالحب ، وكانت تتخذها لنفسها صديقاً ، ولعبت على زوجها [illegible] آخر النهار ، لترق للفتاة وأهلها وأوصى امرأته بها وجهي خيراً ، وتلا قول الله عز وجل : « للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » .

[illegible] ويتحدثون بما تصور هذه القصة من لطف لا يحظونه عند الأغنياء ، ومن [illegible] لا يحظونه فيما يشهدون من أمور الناس ولا فيما [illegible] عليهم من أحاديث الحدثان . وشبان القرية يتحدثون [illegible] بجمال خديجة الفاتن وحسنها الذي يسحر العيون ويخلب [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] ، ملك بقلوبهم كل سبيل ، ثم يتقدم الخاطب ذات يوم من أسرة ليست عظيمة الحظ من الثراء ولكنها بعيدة كل البعد عن [illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible] الأمر ولا [illegible] ذلك ولعل بعد تردد فيه كثير من الأمل الذي يحيي النفوس [illegible] الذي يميت القلوب ، وما يمنع هذه الأسرة البائسة [illegible]
[illegible]

وقد [illegible] الأمور بين الأسرتين ، ولكنها لم [illegible]

في نفس خديجة ، فهي تحتج على هذا الزواج وتلح في الامتناع ، تؤثر حياتها هذه التي تحياها حالمة على تلك الحياة التي تدعوها الى الحرية والاستقلال بأمر نفسها والقدرة على صوغه لعلها . وهي تحتج وتلح في الامتناع حتى تثير الرحمة في نفس أبويها ، فما ينبغي أن نصر على هذا الإباء الا لو يكون قد انصرفت في ذات نفسها [illegible] على الفتاة من حق .

ومحبوبة لعضي بسرها علة الشيء الى [illegible] خديجة في صوت يقطعه البكاء وتعسره الدموع ، ولكن [illegible] الى القصد وتعيد الطمأنينة الى نفس الفتاة وتطيها الحق ، و[illegible] يتخلى منها الرضا احتلاسا . وقد احتفلت [illegible] الزفاف واحتفلت سيدة خديجة ليوم [illegible] الفتاة لهذا اليوم المشهود من حياتها كأحسن ما [illegible] من بنات الطبقة الوسطى لمثل هذا اليوم . وأبيته سيدة خديجة الا أن يبدأ الزفاف من دارها لا من دار [illegible]

وفي ذات ليلة كانت محبوبة قد اتكأت على وجهها أمام بيتها الصغير تريد أن تبكي فلا تجد الدموع ، وتريد أن تتكلم فلا تجد الألفاظ ، وإنما تتردد في حلقها صوت حتى تنكر أن من على ثوبه فانسب تدل على حوتها وطلبها مما [illegible] من ساعات هذا الليل حين [illegible] وهي كذلك ملقاة على الأرض يضطرب جسمها من [illegible] حين اضطرابا عنيفا ، وتجري في أطرافها رعشة تسعد لحظة وتهمد لحظة أخرى ، ويتردد في حلقها هذا الصوت المنكر العميق ، والفرح من حولها يملأ قلوب الصبايا بهجة وسرورا .

لم تنطلق الزغاريد كأنها سهام من فضة تشق ظلمة الليل الحالكة ، وتسمع طلقات البنادق هنا وهناك ، ويطير جمع من

النساء والصبية قد نصبوا شبئا يشبه أن يكون راية قائمة ، وهم يصيحون بالطلق يكرهها السمع ويمجها الذوق ، وهم ... وفريق منتشة يتبع بعضها بعضا ، كأنما تريد أن تمزق أحشاء الليل تمزيقا ، والمرأة وقاح تجز محبوبة جرا عنيفا وتزجرها زجرا عنيفا ، وتقول لها في صوت يسمعه الناس : ابكي الى بعلك ، ما تبكين ؟ لقد يمت خديجة وجهك ووجه [illegible]

[illegible] محبوبه قليلا [illegible] وتدعي أنها [illegible] من هاه [illegible]

[illegible]

[illegible] لا تتمالك نفسها الا في حومة ... في الموت وهي تنظر اليه ، وقد كانت أمها ملقاة على الأرض

٤

المعتزلة

لا [illegible] الاسلامية [illegible] [illegible] فذكرتها ذكرا متصلا ملحا ، [illegible] التفكير فيها فلم استطع [illegible] السير امام [illegible] شاركت في حملها خصال كثيرة ، ولم يختص [illegible] واحدة منها بكل ابعاد الرؤيا ، فكيف اذا لم يكن [illegible]

وأردت أن أهدي حديث هذه الأسرة البائسة الى المترفين المنعمين في الارض ، لا لأبعث الهم المترف بل لأدسه في قلوبهم ، ولا لأصرفهم عن النعيم بل لأرغبهم فيه ترغيبا وأدعوهم اليه دعوة ، فقد تحدث الحكماء منذ الزمن الاول بأن الرجل الحازم خليق الا ينظر الى الذين يتفوقون عليه ، فيملأ قلبه الحسرة ويملأ نفسه الهم ، وأن ينظر الى من تحته من الناس فيعرف ما اتيح له من حسن الحظ ، ويحمد رفق الله به ، ورعاية الله له وإسباغ نعمته عليه ، ويستمتع من أجل ذلك بما قسم له من الخير ، ويستمتع من أجل ذلك بما قسم له من النعيم . وأنا ابعد الناس عن التفكير في أن أزهد المترفين في ترفهم وأرغب المنعمين عن نعيمهم ، لأني أعلم من جهة أني

[illegible] من أرداه حرصا أشفق من العهد ، ومهما [illegible] فإني أعلم من جهة [illegible]

[illegible]

وطمعا عميقا ، فيسخطون على أشد السخط . وانا لعليم الصعاليك بأن يصنعوا فى حديث هذه الأسرة البائسة ما يطمعهم الصبر على المكروه فيرضون عنى ، وما يغنى فى الزمن ان

الأكرة ، يا سيدى ، هى الأساس المتين الذى تقوم عليه حياتنا الاجتماعى البديع ، الذى نصونه بأنفسنا ونحميه بما نملك وما لا نملك من جهد ، فمن أراد الدفاع عن هذا

[illegible] ومعاشه [illegible]
[illegible] لا [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] وما ملموه من الآرائب ، فاذا [illegible] الامال [illegible]
او خفيت عليه اسرار [illegible]
[illegible] ، فلا [illegible]
[illegible] ويمضى فى طريقه [illegible]
بالا الى ما يكتنفهم من الهول ، وما [illegible] عليهم من الهم ،
وما يساقط عليهم من الكوارث والنكبات .

[illegible] وكذلك [illegible]
[illegible]

[illegible] لا [illegible] ولا [illegible]
[illegible] عليهم [illegible] وان [illegible] بالقول
[illegible] عليهم بالعمل ، [illegible] احداث الزمان [illegible]
الايام ، [illegible] الآلام [illegible] ، [illegible] كيف يكون [illegible]

[illegible] الذى لا يساغ ، واقول هذا كله
[illegible] لا [illegible] الارض [illegible] من [illegible]
[illegible] من [illegible] والثراء والنعيم ،
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] على هذا النحو الذى [illegible] ، فليس
[illegible]
[illegible] وان يرضى كل منا بما قسم له
[illegible] السعداء [illegible] الله فى الارض [illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

الله [illegible] متعة لي [illegible]

ليبحثوا من [illegible] والاحداث [illegible]

[illegible]

[illegible]

الحدث إنما قد يجد فيه من تسليه [illegible]

[illegible]

والارشاد والاصلاح اشد الضيق

من الكتاب [illegible] على [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ولكنهم لا يحدثون القراء جميعا [illegible]

[illegible]

[illegible] ودون عن القراء [illegible] تاما انا معه ذلك وما [illegible]

القول : اني لا اريد ان اعلم جاهلا ، ولا اريد ان اعظ غافلا

ولا ان انبه ذاهلا ، فليس من هذا كله في شيء [illegible]

القراء جميعا هنا لا يمكن ان يرقى [illegible]

لا يمكن ان ينسى اليوم المعذبة [illegible]

بهم الذهول ، وفاته وما [illegible]

احدا من [illegible]

انهم أطفال يجب ان ينأوا عن القراءة هذه الاقاصيص التي تجسم

مرارته وكراهته ، عكسه وانا لا اقدم اليهم دواء ، لأني لست

طبيبا ، ولأنهم ليسوا مرضى ، ولأني راض عن حياتنا التي

يجدها كل الرضا ، مطمئن اليها كل الاطمئنان ، معجب بها

اعظم الاعجاب ، لا اريد ان اغير منها قليلا ولا كثيرا ، ولا احب

ان يتغير منها قليل او كثير ، وأول هذا الحديث مني فيما اظن

دلالة واضحة على اني من المحافظين المتشددين في المحافظة ،

ومن اصحاب اليمين الذين لا يشقون بأحد كما يشقون
بأصحاب الشمال .

ومن اجل هذا كله آثرت ان اتحدث الى القراء في هذا
المقال عن أم تمام واسرتها المنزلة ، لان ام تمام كانت تعود
المدينة المؤسسة [illegible] واسدته [illegible] ، فهي كانت
من اهل الصيف الاعلى ، واهل الصيف محافظون كما يعلم
القراء ، لم يفسدهم العلم ، ولم تنحرف بهم المعرفة عن الطريق
القصد ، ولم تعلمهم الحضارة وما كثر فيها من البدع ان في
الارض جورا يجب ان يرتفع عنها ، وان في السماء عدلا يجب
ان يهبط الى الارض ليملأها امنا ودعة ورضا ، وانما هم قوم
يمشون على فطرتهم ، ويرسلون نفوسهم على سجيتها
راوا الارض ملأى بقليل من ملائكة العدل وكثير من شياطين
الجور ، فاحبوا اولئك وانكروا هؤلاء ، ولم [illegible]
ولا هؤلاء الا ان يمضوا فيما استأثروا [illegible]
من هذا الشيء غير معنيين به ، وان منهم من لم يحفلوا به ،
غير منكرين ولا معترضين ولا محاولين تغييرا ولا تبديلا ،
ويقال ان الكاتب يشغل اشخاصه على صورته ، وقد يقطعهم
من نفسه اقطاعا ، ولولا ان ام تمام كانت عارفة في البؤس
والشقاء ، ومسرفة في القناعة والصبر ، لقلت اني اقتطعتها
من نفسي اقتطاعا ، ولكني لست غارقا في البؤس والشقاء ،
[illegible] او صورة ام تمام
[illegible] اني لم اخترعها
ولم ابتدعها ، وعلى ان خيالي القصصي الخبيث ليس له في
حياتها ولا في حياة اسرتها اثر ما ، وانما هي حقيقة والمه
خلقها الله الذي يخلق الخلائق كلها ، و[illegible]
[illegible] والصبر ، كما يقسم بينهم حظوظهم
من السعادة والشقاء .

وقد [illegible] هذه [illegible] في كل [illegible]
حتى [illegible] لا [illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

لمثل هذا اليوم [illegible]
[illegible]

[illegible]
الناس من حولي عن علة ، كما سألتهم عن معلم أو [illegible]
الى القرية [illegible] في هذا البيت ، فلم أجد [illegible] أحد [illegible]
[illegible] ، لأنهم كانوا [illegible] على القرية ، [illegible] اليها
الدار [illegible] ، ولأن القرية [illegible] كانت طارئة على المكان ،

[illegible] فلم [illegible] من أمر
حياتهم ولا من أمر قريتهم الا قليلا أو أقل من القليل ، وكانت
[illegible] أن يعرفوا شيئا من أمرها
[illegible]
[illegible] فقد يمكن أن تعرف
[illegible] على الىل تحدير
[illegible] قصيرة [illegible]
[illegible] أن
[illegible] أطلالها على
[illegible]

[illegible]
ولا [illegible] .

وكانت أم [illegible] في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من
عمرها ، وهي [illegible] كل الجمال [illegible]

[illegible] حتى عدد [illegible] من هذا الكتب

الطبل ، وكانوا يرون هذين [illegible] بما تكشف

عن مواضع من الجسم من حقها [illegible] حتى

ملك المواضع ، وكانوا [illegible]

فيرحمون هذا [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

تتدحرج على الا [illegible]

العامة ، ولـ [illegible]

[illegible]

على [illegible] بينهما تمنع الروث [illegible]

[illegible]

وحمل الوباء ولا [illegible]

[illegible]

[illegible]

في عاليه الذين [illegible]

[illegible]

الى الارض ، لا يرتفع لها صوت بالاعوال ، ولا يتحفض لها

صوت بالنحيب ، وانما هي مقيمة في بيتها ، ولقد اوت اليها

اسما كانما تنتظران أن يلم الوباء بهما [illegible] كما [illegible]

[illegible] ولكن الوباء قد [illegible] من هذا البيت فهو

لا [illegible] فانما [illegible] ام تمام له في غير طائل ، نظر

[illegible] فاذا اطرافها قد [illegible] من جميع جوانبها ، واذا حياتها

قد بدلت تبديلا ، ليس لا [illegible] بينها ولا [illegible] فيه ،

وانما [illegible] فيه [illegible] عليها ان تخرج منه ، وتنطلق

[illegible]

الليل [illegible] من الارض [illegible]

الى [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الى يمين او الى شمال ، لم لا يراها الناس [illegible]

[illegible] لا في [illegible] من هذه الدور التي الم بها الموت وقام فيها المأتم

[illegible] ام تمام [illegible]

[illegible] لا تلقى الى احد [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وما تزال كذلك حتى ينقضي النهار [illegible]

يكلمها احد ، ولا ترد على الذين كانوا يكلمونها [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

احد قط ان يعرفه من ذلك قليلا ولا كثيرا ، ثم يحاول احا

في جيبها ، ولم تحاول هي أن تصنعني مأخذه ، وإنما أنفقته أيام الوسية لتتسم ريح الموت حين يسفر الصبح ، وتسمع همومها في منازل أموات الناس النهار ، وتعود إلى بيتها وأنسها حين يلبس الليل ، وتنطوي غمرة الوباء ، وتخرج أم تمام من بيتها مع الصبح أياما وأياما ، فتنقل وجوهها الغريبة تتنسم [illegible]
بيتها وتطلق من فوهها السلف ، ولا يراها النهار إلا حين تخرج مع الصبح لتتنسم ريح الموت ، ويراها بعض أهل القرية ذات يوم قد خرجت قبل أن يرتفع الضحى ، وأخلفت بيد أبيها ، وحملت تتحسس في بطنه مجر العرب ، فيحول بعضهم لبعض : هذه أم تمام قد طلب البطالة ، وسئمت السكون وقت عسها وملى ابنتها الجوع ، فخرجت لتسأل الرزق ولتسأل من فضل الله ، ولكن النهار لا يكاد يمضيه حتى يأتي نفر من الفلاحين يحملون جثة قد شاع فيها الموت ، وجثة أخرى لتتبع على الموت استنادها ، قد رأوا أم تمام تمرق نفسها وابنتها في العملة الإبراهيمية ، فأسرعوا إلى استنقاذهما [illegible] مسقهم إلى الشيخة وسفره هم إلى الصبية ، وقد دعى أهل الحي أم تمام ، وآووا سعدى ، في هذه الدار أياما وفي تلك الدار أياما ، ولكن سعدى خرجت من الماء بلهاء ليس لها حظ من عقل ولا نصيب من صواب ، فهي تقبله على الذين يؤوونها ، بغيضة إلى الذين يضمونها ، وما هي إلا أسابيع حتى تلفظها الدور والبيوت ، وإذا هي شريدة تسعى ما استطاعت السعي ،

وتسكن حين تضطر إلى السكون ، تراها في هذا الشارع من شوارع القرية مسبحة ، وفي هذا الزقاق من أزقتها ممسية ، وتراها بين ذلك في الطريق العامة تسعى سعيا رفيقا كأنها المسعدة ، أو تعدو عدوا سريعا كأنها للأرض - وقد تراها أحيانا جالسة على شاطئ القناة تنظر إلى الماء كأنها تريد أن

[illegible] السماء كأنها تريد أن ترقى إليها [illegible] وحمل [illegible]

[illegible]
من قرب أو من بعد مصيحة [illegible]
فيرون منظرا محببا من شأنه أن يمرق القلوب حزنا ويغرق النفوس حسرة وأذى ، يرون هذا المنظر المؤذي الشنيع البغيض فلا يثير في نفوسهم رحمة ولا يجري ألسنتهم بكلمة رثاء ، وإنما ينظرون ثم يتضاحكون ثم يتناولون هذه الألفاظ النابية التي تصور سخرية أهل الريف ، لأنهم يرون سعدى البلهاء تسعى وطفلها يسعى بين يديها ، قد عبث بها غول من أغوال الطريق فوضع في أحشائها جنينا ، وهي بلهاء لا تفرق بين الغول والرجل ولا بين الملك والشيطان ، ولا تعرف ما يراد بها ولا تعرف ما تريد إن كان لمثلها أن تريد .

أين مضت سعدى بهذا الجنين الذي كانت تحمله في أحشائها ؟ أتيح لهذا الجنين أن يرى النور أم لم يتح له أن يراه ؟ ما خطبه وما خطب أمه ؟ لن أحدثك من أمرهما بشيء لأني لم أعرف من أمرهما شيئا ، وإنما حدثتك بما وعته ذاكرتي ، فقد ارتحلت عن القرية قبل أن تلقى أمه الحسين وأمه البلهاء ، لم تشغلني عن الحسين وعن أمه البلهاء ، وأنسيت

ام تمام واشباه ، ولقلت فيما [illegible] الا [illegible] احسب انه من
شؤون الحياة [illegible] وارسم [illegible]
منها قصيرة او طويلة ، فاحك فيه [illegible]
ام تمام واشباه [illegible]
ايمكن ان [illegible]
ام تمام واشباه ام [illegible]

[illegible]



١

[illegible]

الاصوات [illegible]

[illegible]

اصحابها قد تحدثت بهم الى شيئا ، واصوات [illegible]
كانت [illegible] اصوات الرجال وكانت [illegible] حظها من الاه [illegible]
وكانت هذه الاصوات المصنعة المطلقة في وقت واحد ، تحمل

٢

[illegible]

انه كان يذكر من حين الى حين هذه الصحيفة في اللحية العزيزة ، وصوت سيدنا الشيخ وقد تكلف الرقة والرفق ، وهو [illegible]

[illegible]

اداء [illegible] . وكان النهار يمضي ساعة القراءة وساعة التحدث لم [illegible] الاسباب بين الصبي و[illegible] صلة واتصالا ، فكان الثلاثة يخرجون من الكتاب اذا صليت العصر ، فيذهبون معا الى بيت الصبي قليلا والى بيت [illegible] غالبا ، وكان [illegible] انيسا مترفا في نفس الصبي يملأ قلبه حين تدخله روعة و [illegible]

[illegible]

[illegible]

الفرس ليظهر؛ لها صفاتهما بشعة ليس [illegible]

[illegible]

عينة لا تخرج من حجرتها ولا تترك فراشها [illegible]

[illegible]

من النار ولتوسط جمع الناس [illegible]
سافرة لم تلق على وجهها حجابا ، وقد انحدرت في احدى يديها
جبة صغيرة علما توسطت الجمع وجم الناس ، وهم صاحب
النار أن يمضي ولكن أبو جوم أخذه هو أيضا فأثبته في مكانه ،
وارتفع صوت الفتاة هادئا رزينا ، فقطع القرىء قراءته واستمع
لها الجمع كأن على رؤوسهم الطير ، وإذا هي تقول : « من علم
منكم انه اقل الحرمة والمحافظة فليعبر ذات نفسه ودخيلة
ضميره ، فليس هذا حين مراء وانما هو حين [illegible]
ان هذا الرجل الذي تعرفونه قد قتل امرأته واسمع صوتها ،

[illegible]

٣

[illegible]
لصوت بعضها عن غيرها ، وشغل كل واحد من [illegible] الامر ؟

٦

صفاء

[illegible]

لا يريد الفتى أن ينصل ويحرص الأم على [illegible]

الحدث بمس الماضي المنكر الذي حرصت منه الأسر [illegible]

الفتى أن [illegible] ويريد الأم أن تبني له ويحرص عليه [illegible]

[illegible]

هذه القصة واحداثها ، وانما اختارته طبيعة [illegible]

[illegible] وأخرت طبيعة الأشياء عليهم [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وكانت الدولة مختلة جدا في تلك الأيام [illegible]
الدلوم تحتق ينكب من مكاتب الرق على [illegible] الحرية
والتحرير ، ويؤخر في أثناء ذلك ثلاثة جنيهات في الشهر ،

[illegible]

في الدائرة ، وحين يروح من هنا الى [illegible] ، بينما [illegible]
[illegible]
شيء ولا تدل على شيء ، وانما تشغل أصحابها عن انفسهم ،
وتلهيهم عن [illegible]

ولكن [illegible] الوسائل [illegible]
[illegible] هذه الاحداث [illegible] حتى وحتى
ما [illegible] الأمر ، ولكنه لا [illegible]
[illegible] ولا [illegible] ولا [illegible]
[illegible] ، وهو
يسلك الى غايته طرقا مختلفة ملتوية ، لا [illegible]
الا الذين [illegible] الحياة وعلمتهم التجارب ، [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
ولا [illegible] الأمر [illegible] هذه [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الأمر [illegible]

[illegible] في أمر الأخوة والأمهات

[illegible]

[illegible]

[illegible]

في بعض ذلك ، فلا تسمع منه إلا هذا الجواب يرده عليها في
ابتسامة [illegible]
[illegible]

وهمت مرة به أن تحدث [illegible] أبيها في بعض
ذلك ، فقال لها مضاحكا : « ما نحن وذاك [illegible] أقوى
قوة ، وأعظم بأسا ، وأوسع سلطانا ، وأشد إغراء من الحب !
وما ينبغي للعذراء أن يحبوا » . وهمت أن تمضي في حديثها
فكفها عن ذلك بإغراقه في ضحك طويل ، وبانتقاله إلى أحاديث
العمل والعاملين فيه ، وإلى أحاديث القاهرة وموظفيها ، حتى
قال أبوه الشيخ : « دعي هذا الفتى ، فإنه لم يخلق للفرح
ولا للحزن ، كما لم يخلق للجد ولا للهزل » . وسمع الفتى مقالة
أبيه ، فازداد إغراقا في الضحك ، ثم انصرف عن المائدة كأنه
مجنون . وكان من وراء هذا الجنون مع ذلك خاطر قد طوى
عليه نفسه طيا ، وهو أن المال أقوى من الحب . ولكن الطريق
بينه وبين الحب قريبة كل القرب ، ممهدة كل التمهيد ، فليس
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] كأنه صبية لا سبيل إلى التحلل منها
ولا إلى النكوص عنها ، ومتى استطاع الفتى المعلم أن يتخلص من
[illegible]
وإنما هي حبسة واسعة أولا ، وحراسة حريصة ثانيا ، وحبس
النفس على ما تكره بعد ذلك . وقد حمل هذا الخاطر يتردد
في ضمير الفتى يقظان ، ويتردد في أحلامه نائما ، والفتى يملك
أمره ويضبط نفسه ويمسك لسانه ، فلا يظهر [illegible]
شيئا ولا يعلن بين الناس وبين ما أخفى في ضميره من هذا
السر المكتوم . ولم تكن حال سعاد خيرا من حاله ، ولكنها

[illegible]

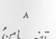
[illegible]

[illegible]

٧



٨



تضامن

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

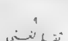
[illegible]

فهل تطمع في أن تسمع الدولة ، وفي أن يسمع المصريون ؟
ومن تسمع في [illegible] مذكر الدولة ومذكر المصريين ! وعلى تطمع
[illegible] ومعنى نكرامة الانسانية من هذه المحدثات في
الصحف [illegible] يوم [illegible] الأموال على الوطن وعلى المواطنين ؟

[illegible] على [illegible] السعلاء كيف تكون
الكرم والجود [illegible] يعلمر عن [illegible]
وحياة [illegible]

—

٩



[illegible]
الثراء في [illegible] الى الاسلام [illegible]
[illegible]
ولم يعرف الثراء قلبه من العجز [illegible]
المرلون من قريش [illegible] كان الاسلام يدعو [illegible]
بين الاغنياء والفقراء وبين الاقوياء والضعفاء وبين الاحرار
والعبيد ، وانما شرح الله صدره للاسلام ، فاقبل عليه مشغوفا
به مضحيا في سبيله بما جمع من مال وما ضم من ثروة
وما اكتسب من سؤدد ، مستعدا لمشاركة اصحابه في التعرض
للاذى واحتمال المكروه ، ولم يتردد كما لم يتردد غيره من
اصحابه حين اشتدت المحنة وتمثلت الفتنة وعظم البلاء في ان
يفر بدينه الى حيث يأمن على رأيه وعقيدته وعبادته لربه ،
تاركا وراءه ماله الكثير وثراءه العريض ومكانه الرفيع ، وقوما
من اهله وذوي قرابته كان يحبهم اشد الحب ويعطف عليهم
ارق العطف ويمنحهم صفو ما كان يفيض به قلبه من الرفق
والبر والحنان ، فهاجر الى ارض الحبشة الهجرتين جميعا ،
ثم هاجر الى المدينة حين اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم
للاسلام دارا ، فانتهى اليها وهو لا يملك الا قلبه الذكي وضميره
النقي وايمانه الحي وامانته التي ملأ نفسه ثقة ويقينا ، وقد
آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين رجل من قبيلة
الانصار هو سعد بن الربيع الخزرجي رحمه الله ، فقال له

[illegible]
النبي صلى الله عليه وسلم [illegible]
[illegible] وبأنه قد امهر زوجه وزن نواة من
ذهب [illegible]
[illegible]
المدينة قد اكتسب [illegible]
[illegible]

كان عبد الرحمن اذن من تجار [illegible]
مكة ، فلما لم تتح حكمة ضم الى ثرائه [illegible]
[illegible]
ولم يكن يحمل [illegible]
[illegible] في الثروات منقسم بين الدولة ويحفظ حصتها للمرفق

العامة ولوجوه الاحسان والبر . وكانت الصدقات تؤخذ من الاغنياء لتقسم بين الفقراء ولا يصل منها الى المدينة الا اقلها ، فاذا وصل حبس على المصارف التي بينها الله في القرآن الكريم ، لكان بيت المال فقيرا . وليس ادل على فقر بيت المال من الحاح النبي صلى الله عليه وسلم على الاغنياء من الناس في ان يجهزوه على بعض غزواته باموالهم : يخرجون له من بعض نقودها أو يبرئون له من بعض اصولها .

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يكره شيئا كما كان يكره اجتماع المال . ولم يكن [illegible] على [illegible] وعلى اصحابه من شيء كما كان يشفق على [illegible] وعلى اصحابه من اجتماع المال [illegible] [illegible] [illegible] ان عوف [illegible] [illegible] عوف رضي الله عنه [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] قال : « أبكله أجمع يا رسول الله ! » قال : « نعم ! » [illegible] ابن عوف وهو [illegible] [illegible] رسول الله صلى الله عليه وسلم [illegible] [illegible] ابن عوف فليضف الضيف ، وليطعم المسكين ، وليعط السائل ويبدأ بمن يعول ، فانه اذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه .

والحب قبل كل شيء ان يقف القارىء معي عند ما في هذا [illegible] في نفسه ، في مصاحبة الصحابة كلها ، فرسول الله يشفق [illegible] الواسع وماله الكثير ، ويصور هذه الثروة [illegible] صاحبها على كاهله فتثقله من السعي وتمنعه من الحركة ، حتى كأنه مقيد لا يستطيع ان يمشي الى الجنة مع الساعين أو يعدو اليها مع العادين . وهو لا يشير عليه بأن يتخفف من هذا الثقل يلقيه عن كاهله القاء ، وانما يشير عليه بأنه يثمر

هذا [illegible] ولا [illegible] ، وذلك [illegible] عوف الله [illegible] على [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] فيقال له : انما بما [illegible] فيه ، اى ثم فتصدق بكل ما اجتمع لك من مال حين استقبلته الساعة ، واعلم انك حين تصل ذلك لا تزيد على ان تبتغيه ، وانك ستمتحن فيما سيجتمع لك من المال في مستقبل ايامك بمثل ما امتحنت به فيما اجتمع لك من المال في ايامك الماضية .

وقد ثقل الامتحان على عبد الرحمن بعض الثقل ، فهو يسأل النبي . أكل ما اجتمع لي من المال ! فيجيبه النبي [illegible] ورسوله في هذا المال الذي يحبه والذي اشفق في جمعه والتمير [illegible] [illegible] أو الحرب وانما هو الاعلان بذلك وانفاق المال على هؤلاء الذين يحتاجون اليه .

ويمضي عبد الرحمن الى مصمما على ان يمضي في ماله أمر الله [illegible] [illegible] يرسل اليه ان الله ورسوله [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وماله ، [illegible]

[illegible] من العزيمة الصادقة الماضية [illegible] وعلى الجهد مهما يكن ثقيلا ، فاذا استقامت العزيمة الماضية

[illegible]

لا ينقص من ماله ، وانما يزيد فيه ويضاعفه اضعافا ، كاملا

[illegible]

١٠



سخاء

لست ادري أتصح هذه الأخبار كما احب وكما اعتقد ، ام لا تصح [illegible] صحته او لم تصح حتى في نفسي كثيرا من الخواطر ، وتثير في نفسي كثيرا من [illegible] [illegible] [illegible] لن اقيل ساعات حلوة كما يريد الشاعر القديم ان يقول .

وهذه الأخبار هي التي تتصل بكرم الكرماء ، وجود الاجواد [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الصحة ، ذات الفاع البعيد او التي ليس لها قاع ، التي لا تجود بشيء مما يستقر فيها من الله مهما يكثر ومهما يركب بعضه بعضا ، وانما هي مصمتة من جميع جوانبها ، ليس فيها امل ان يظفر بها الا ان يحطمها تحطيما .

الحمد لله الذي لم يخلق الناس جميعا حراصا على هذا النحو من الحرص ، بحلاه الى هذا الحد من البخل ، وانما جعل منهم

[illegible] [illegible] ولا [illegible] وانما تتخذه وسيلة تتمتع بها [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] هؤلاء الاجواد الاسخياء [illegible] [illegible]

[illegible] فتمضون العزاء حيث تحملوه وكما [illegible] فاذا لم تظفروا [illegible] ظفروا به في المعاصرين ، من عربيه [illegible] [illegible] [illegible] والنوائب التي تنوب ، وهذا [illegible] من كل وجه ، يتقدم الموت حتى يسلم بعضهم [illegible] يستكثر من بقي منهم ليمضي في لقائهم الموت ، ...

حيا ومنفعلا حينا ، وجعلت أنظر فيمن حولي من الأشباح ، وأنظر في موقعهم منه [illegible] والملاء [illegible] المنازل ، والمصابيح [illegible] ، على أن لا [illegible] في القلوب ، وقلقا في الأكباد ، وجفوة في الطبع [illegible] وكثيرا ما [illegible]
[illegible] بين الكرم والبخل [illegible] لتحلل [illegible] طول [illegible]
ولا [illegible]
ما [illegible]
[illegible]
[illegible]
لا [illegible]
أو [illegible]

[illegible]
[illegible] يرقصون على جثث الواضحين ،
[illegible]
[illegible] وهذه الموسيقى [illegible]
من [illegible] الطالعين وصيحة الناعبين [illegible]
بأسا [illegible] على [illegible] الشرعة [illegible] ، أن يكون
[illegible] لأنها
لا [illegible] من [illegible] وأنما [illegible] من [illegible] مصر كلها ،
[illegible]
[illegible]
لا [illegible] ولا [illegible] لهم [illegible]

وصفاء [illegible] وهؤلاء مع
الأسف [illegible]
[illegible] لا [illegible]
كيف [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] لأحد منهم [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
الا [illegible] لأحد
[illegible] لأحد منهم [illegible] أن يؤمن [illegible]
[illegible] لا [illegible] الخزى عليهم بمقدار ما يجر الخزى

على وطنهم كله ، وعلى الذين اتيح لهم الظروف ان يكونوا عنوانا لهذا الوطن ، تقول الاجنبي حين يفد على مصر ، ويسمعون [illegible]

[illegible]

اي بأس علي انا رأيت هذا كله وضقت به ذرعا ، فوجدتني [illegible] واما ان انصى القراءة حيث استطيع ان اتمه ، وكما استطيع ان اتمه ، لعل الفكرة ان تتجلى ، ولعلي استطيع - بعد وقت قصير او طويل - ان اعود الى هذا الجيل من المصريين المعاصرين ومن الشباب خاصة فاقول لهم ، واسمع منهم دون ان اجد في نفسي هذا الالم الممض ، وهذا الاشمئزاز البغيض .

الى التاريخ اذن والى احاديث القدماء [illegible] قلوبنا يأسا ونفوسنا قنوطا [illegible] فنهجرهم ، ولنهاجر في الزمن اذا لم تتح لنا الهجرة في المكان ، ولننظر في اخبار تلك العصور القديمة ، سواء اصحت ام لم تصح ، فهي ان صحت كانت قد مرآة ، وهي ان لم تصح ألهمت لنا اي مطمح مجيد من الناس لا يكون الرجل فيه عبد المال ولا مرفوق الثروة ، وانما يكون المال فيه عبدا لمالكه ، وتكون الثروة فيه وسيلة الى اغاثة المكروب واعانة الملهوف ، وتحفظ المحروم ، ثم الى الثورة هذه لمسعة الحطوة التي يحسها الرجل الكريم حين يحس [illegible] قد اعان مكروبا واغاث ملهوفا وانقذ محروما [illegible] وتصرف في ماله ولم يدع ماله يتصرف فيه .

و [illegible] عصر [illegible] يعيش فيه ، والى [illegible]

[illegible] يروى [illegible] من اصحاب الجود والسخاء ، عند هذه القصة التي تروى عن عثمان - رحمه الله - حين اجدب اهل المدينة ايام ابي بكر حتى ارتفعت الاسعار ، ولم يجد الفقراء واوساط الناس ما يأكلون ، واقبلت في اثناء ذلك عير لعثمان تحمل من الشام خيرا كثيرا ، فاسرع التجار اليه يريدون ان يشتروا منه بضاعته ليسروا بها على الناس ، وجعل يساومهم [illegible] ولكنه ابى ان يبيع الا ان استطاعوا ان يدفعوا اليه [illegible] فلما اظهروا العجز انبأهم بأن الله قد وعده عشرة امثالها ان تصدق بها ، ثم اعلن اليهم انه يؤثر هذه التجارة على تجارتهم ، ويؤثر ثواب الله على اموالهم ، وان [illegible] صدقة للمسلمين .

[illegible] وقصص طريفة ، طريفة جدا ، عند رجل آخر من اصحاب [illegible] وهو طلحة بن عبيد الله رحمه الله ، وقد [illegible] حزينا ، فلما سألته عن ذلك [illegible] فقد جاءه مال كثير ، فهو مهموم لا [illegible] امرأته على [illegible] قسم هذا المال [illegible] بعد ذلك لله صدقها ، وكان هذا المال اربعمائة الف درهم !

[illegible] طريفة ، طريفة جدا ، عند طلحة نفسه [illegible] له وادى اليه ثمنها سبعمائة الف درهم ، فلما

١١

[illegible] يكونوا [illegible] [illegible] كذموا
[illegible] الإنابة

[illegible] [illegible] [illegible] بعد الصدق في غير موضع من [illegible] الى أن أبدو لطالب سيحصل منه ساعات من [illegible] السعيدة أن أبلغ بيروت دون أن آخذ شيئا من [illegible] مصر ، لأن [illegible] الكوليرا منعها من ذلك .

هنالك لم ترتفع الأكتاف ولم تهز الرؤوس ، ولم [illegible] ساخرة ولا جادة ، وإنما خطر بعض الساخرين الى [illegible] فلم يسمعوا مني [illegible] الشعور الذي وجدته في ذلك الوقت شعور الخوف ؛ ولا [illegible] بالحاجة الى الاحتياط ، وإنما كان شعورا غريبا استطيع الآن أن [illegible]

[illegible] فيه الحزن على هذا البلد الذي كنا نراه خلفها [illegible] وكرامتنا وجهودنا وقوتنا لنرقى [illegible] إنا أهلا ، لم نا نحن [illegible] أحقه من جميع [illegible]

متصلة لا تنقطع عنهم في ليل ولا نهار ، فهم جائعون عراة [illegible]

[illegible]

[illegible] فإذا هذا البلد الذي عرفته [illegible]

مع ذلك اقليما معتدلا وأرضا خصبة وسماء صافية ونهرا
يفيض بالنعمة والنعيم ، وكان هذا كله خليقا أن يكفل لأهله
حياة مادية محتملة ، ويصرف عن أهله الآفات والعلل والأدواء ،
ولكنا ننظر فاذا هو قد حرم حتى هذه الحياة ، واذا الآفات
والعلل والأوبئة تسعى اليه من أقصى الشرق ومن أقصى
الجنوب ، فلا نجد من يردها عنه أو يحميه من شرها ، واذا
الآفات والعلل والأوبئة تهبط عليه من سمائه الصافية ،
وتخرج له من أرضه الخصبة ، وتسعى اليه مع نهره الفياض ،
واذا أهله مراح الآفات والعلل والأوبئة ، تصيبه منه ما تشاء
كما تشاء ، ومتى تشاء ، وحيث تشاء ! واذا العالم كله يتلقى
الأنباء في أقل من شهر بأن هذا البلد الذي خلق العزة ما زال
مستذلا ، وبأن هذا البلد الذي خلق للأمن ما زال خائفا ،
وبأن هذا البلد الذي خلق الحرية ما زال مستعبدا ، ثم بأن
هذا البلد الذي خلق للصحة مريض يفتك وباء الكوليرا بمدنه
وقراه ويعبث في مدنه وقراه كما يشاء ، ومتى يشاء ، وحيث
يشاء !

ثم في هذا الشعور الذي اطرقت له الى الأرض وتضاءلت
له وتضاءلته ، شيء عظيم كئيب من الخزي لهذا البلد الذي
كنا نظنه قد تجاوز هذا الطور ، طور البلاد المتأخرة الضيقة
الجاهلة التي تفتك بأهلها الأوبئة ، فاذا نحن نراه فريسة
للوباء ، بل مراحا للوباء ، وأي وباء ؟ وباء الكوليرا الذي كنا
نظن أنه لن يعود الى مصر بعد أن فعل بها وبأهلها الأفاعيل في
أول هذا القرن .

ليت شعري ماذا صنعت مصر ! وماذا صنع المصريون !
يقال انهم قد انشأوا في هذا القرن كثيرا من المدارس ومعاهد
العلم ، ومضوا في الحضارة الحديثة الى أبعد حد ممكن ،
فلهم برلمان كما أن لغيرهم من الأمم برلمانات ، ولهم وزارات

منظمة كما أن لغيرهم من الأمم المتحضرة وزارات منظمة ،
ولهم وزارة قد خصصت لشؤون الصحة ، كما أن لغيرهم
وزارة مخصصة لشؤون الصحة ، ولهم عاصمة تتفوق على
كثير من عواصم البلاد المتحضرة وتقاس الى عواصم الدول
الكبرى ، يعجب بها أهل باريس وأهل لوندرة وأهل نيويورك اذا
ألموا بها وأقاموا فيها ، وهم بعد هذا كله قد نالوا من الشرف
ما عرف عن كثير من الأمم المتحضرة في هذه الأيام ، حتى
أصبح ثراؤهم وترفهم واسرافهم على اللذات مضرب الأمثال في
أقطار الأرض كلها ... كل هذا حق ، وكل هذا شيء تسمعه
حين تزور باريس وهي باريس من المدن الكبرى في أوربا وفي
امريكا . كل هذا حق ، ولكن من الحق أيضا أن العالم كله
قد تلقى منذ شهر نبأ مضحكا ولكنه على ذلك خطير أشد
الخطورة ، تلقى النبأ بأن مصر التي أراد اسماعيل أن يراها
جزءا من أوربا قد ألم بها وباء الكوليرا وأقام فيها ، وأنها تريد
أن ترده فلا تستطيع له ردا ، وأنها تستعين بالعالم المتحضر
على وقاية أبنائها من شره وحمايتهم من فتكه البغيض .

وكنت أظن أن هذا الشعور بالخزي مظهر من مظاهر
الغرور والكبرياء والاعتداد بالنفس والوطن ، ولكني لم أكد
أبلغ مصر حتى عرفت أني لست مستأثرا من دون المصريين
المثقفين بهذا النوع من الغرور والكبرياء والاعتداد بالنفس
والوطن ، فكل مصري مثقف يعتز بنفسه ويفخر بوطنه ،
ويستحضر ما بذل المصريون من الجهود في العصر الحديث
ليرقوا بوطنهم الى حيث ينبغي أن يكون من العزة والأمن
والحرية والصحة في الأبدان والقلوب والعقول . كل مصري
مثقف يجد هذا الشعور المر الذي وجدته ، والذي هو مزاج
بالغ من الحزن الممض والخزي الذي تطأطأ له الرؤوس .
وينظر اليّ من كان حولي من المسافرين ، وفيهم المصري

والأجنبي ، فيروعهم ما يرون من هذا الوجوم الذي أغرق فيه إغراقا قريبا ، فيظلون بي في أعماق أنفسهم القلقون ، ويسألني بعضهم محاولا أن يهون عليّ الخطب وأن يردني إلى شيء من الأمن : ما لنا أجد ! فلا أزيد على أن أذكره بأني أعرف وباء الكوليرا ، وبأني قد تحدثت عنه في بعض ما قرأ لي من كتب ، وبأني قد رأيت هذا الوباء وأنا المجاور العاشرة ، فكان له في قلبي وحياتي كلها أبلغ الأثر وأعمقه وأبغضه ، وأثر الأطفال حين يكون عميقا بغيضا إلى هذا الحد لا يفارقهم مهما تتم لهم أسباب الحياة .

أصدقوني أم لم يصدقوني ؟ لا أدري ! ولكني أنا لم أصدق نفسي ، فلم يكن بين هذا الوجوم الذي أغرقت فيه وبين ذكريات الصبا على مرارتها وعلى ما تثير في النفس من الحسرات صلة قريبة أو بعيدة في ذلك الوقت ، وإنما نشأ هذا الوجوم من هذا الشعور الحزين الساخط الذي يجده المصري المثقف حين يرى آماله وأعماله وجهوده ، وآمال كثير من نظرائه وأعمالهم وجهودهم ، تنهار كأنهم لم يشعروا بهذه الآمال ، وكأنهم لم يسعدوا بما حاولوا من الأعمال ، وكأنهم لم يستمتعوا بما بذلوا من الجهود ، وكأنهم لم يتحدثوا إلى أنفسهم ولم يتحدث بعضهم إلى بعض بأن آمالهم التي كانت بعيدة قد أخذت تقرب وتقرب حتى توشك أن تتحقق ، وبأن أعمالهم الشاقة قد أخذت تؤتي ثمراتها ، وبأن جهودهم المضنية قد أخذت تقربهم من غاياتهم ، وبأنهم سيستطيعون بعد حين أن يقفوا بعد طول السعي ، وأن ينظروا فإذا هم لم ينفقوا حياتهم عبثا ، ولم يبذلوا جهودهم في غير طائل ، وإنما تلقوا من آبائهم وطنا ضعيفا مهيضا عليلا ، فما زالوا به حتى ردوا إليه شيئا من قوة وصحة وعافية ونشاط ، ومضوا به في طريق العزة والكرامة أشواطا وأشواطا ، وهم يستطيعون أن يسلموه إلى أبنائهم مطمئنين

إلى أنهم قد نهضوا بالحق فأحسنوا النهوض ، وأدوا الواجب فأحسنوا الأداء .

كان هذا الشعور بخيبة الأمل وضيعة العمل مصدر هذا الوجوم الذي أغرقت فيه ، ولكني لم أكن أستطيع أن أتحدث بشيء من ذلك إلى من كان حولي من الناس ، فهم كانوا مشغولين بأنفسهم عن المثقفين المصريين وعن آمالهم وأعمالهم وجهودهم ، وعن هذه الفلسفة اليائسة التي تغمر قلوبهم في هذه الأيام السود ، وهم كانوا يتحدثون فيما بينهم بما ينبغي أن يتخذوا من ضروب التحفظ وألوان الاحتياط ، وهم على كل حال قد عرفوا أني لا أحب أن أسمع لحديث الكوليرا ولا أن أشارك فيه ، فأعفوني من هذا الحديث ، ولكن الأنباء لم تعفني منه ، فقد كانت نشرة السفينة تحمل إلينا كل يوم عدد الإصابات وعدد الوفيات وأمثال هذه وتلك ، ولم تشرف على الإسكندرية حتى لم يكن لأهل السفينة إلا هم حديث إلا هذا الوباء ، وظننت أني سأجد إذا بلغت مصر وجوما ثقالا وحزنا منتشرا واستخذاء شاملا ، كما كنت أجد في نفسي من الوجوم والحزن والاستخذاء ، ولكني أبلغ الإسكندرية وألقى من شاء الله أن ألقى من المصريين ، فإذا حياتهم تجري على الوتيرة التي ألفناها ، وإذا الوباء يروعهم ولكنه لا يصرفهم عن أنفسهم ولا عن لذاتهم ، وإذا أنباء السياسة تخيفهم ، ولكنها لا تلهيهم عن أنفسهم ولا عن لذاتهم ، وإذا أنباء الاقتصاد تخيفهم ، ولكنها لا تشغلهم عن أنفسهم ولا عن لذاتهم ، وأبلغ القاهرة فأرى فيها مثل ما رأيت في الإسكندرية ، وإنما الذين تشغلهم أنباء الوباء والسياسة والاقتصاد عن أنفسهم وعن لذاتهم قلة ضئيلة ليس أيسر من إحصائها ، فأما من عدا هذه القلة فماضون في حياتهم كما تعودوا أن يمضوا : ألسنة طوال وعقول قصار وقلوب قاسية كالحجارة بل أشد قسوة ،

ولا أملك نفسي أن أتلو قول الله عز وجل : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » ، ولا أملك نفسي أن أتلو قول الله عز وجل : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

ويقبل العيد فإذا المترفون مقبلون على عيدهم كما أقبل عليهم عيدهم ، لا يشعرون بأن مئات من الأسر في مئات من المدن والقرى قد كانت تنتظر العيد كما كانوا ينتظرونه ، وتتشوق اليه أكثر مما كانوا يتشوقون اليه ، ولكن العيد أخلفهم موعده ، وأرسل اليهم الموت ألما منه ، وأرسل اليهم مع الموت حسرات وعبرات وزفرات ، وأرسل اليهم مع هذا كله شقاء ملحا وبؤسا مقيما . نعم ! ولا يشعرون بأن أمهم مصر مريضة ، وبأن مرضها هو الترف المهلك ، ولكنها لا تترف بعد وإنما تترف أبناءها وبناتها ترفا . لا يشعرون بشيء من ذلك ، أو يشعرون به ولا يلتفتون اليه ، أو يشعرون به ويلتفتون اليه ولكنهم لا يحفلون الا بأنفسهم ولا يشفقون الا عليها ، كأنهم يستطيعون أن يعيشوا وينعموا ويستمتعوا بالحياة إذا ضرب الحزن واليأس والموت أطنابها على هذا البلد البائس الشقي .

هيهات ! هيهات ! إنما ذلك تعليل النفس بالأماني الباطلة ، وخداعها بالآمال الكاذبة ، وإن المصريين بين اثنتين لا ثالثة لهما : فإما أن يمضوا في حياتهم كما ألفوها ، لا يحفلون الا بأنفسهم ولذاتهم ومنافعهم ، والآن فليثقوا بأنها الكارثة الماحقة الساحقة التي لا تبقي ولا تذر ، وإما أن يستأنفوا حياة جديدة كتلك التي عرفوها في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، قوامها التضامن والتعاون والغاء المسافات والأبعاد بين الأقوياء والضعفاء ، وبين

الأغنياء والفقراء ، وبين الأصحاء والمرضى ، والآن فهو التآزر على المحنة حتى تزول ، وعلى الكارثة حتى تمحي ، وعلى الغمرات حتى ينجلين .

الى أي الطريقين يريد المترفون من المصريين أن يذهبوا ؟ الى طريق الموت أم الى طريق الحياة ؟ سؤال ألقيه على نفسي حين أصبح ، وألقيه على نفسي حين أمسي ، وأضرع الى الله بين ذلك أن يجنبني اليأس ، ويعصمني من القنوط ، « إنه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » .

حديث الشهر

عزيزي القارئ :

[illegible]

يوسف السباعي

محتويات الكتاب

مطبعة مصر ٩٥٥/٥٨/٢٠٠٠٠